

الباب الثالث عشر

الإسلام في الغرب

٦٤١ - ١٠٨٦

الفصل الأول

فتح إفريقية

لم يكن الشرق الأدنى إلا جزءا من العالم الإسلامي ، وقد استعادت مصر تحت حكم المسلمين مجدها الفرعوني ؛ كما استعادت تونس ومراكش بزعامة العرب ما كان لها من حكومة منظمة ؛ وازدهرت مدائن القيروان وبالرم وفاس إلى حين . أما أسبانيا في عهد العرب فقد وصلت إلى الذروة في تاريخ الحضارة ؛ ولما حكم المغل المسلمون بلاد الهند فيما بعد شادوا كما يشيد الجبابرة ، وأبدعوا كما يبدع الصياغ .

وبينا كان خالد بن الوليد وغيره من الفاتحين يخضعون بلاد الشرق زحف عمرو بن العاص ، بعد موت النبي بما لا يزيد على سبع سنين ، من مدينة غزة في فلسطين واستولى على بلوز(*) ، ومنفيس ، ثم زحف على الإسكندرية . لقد كان لمصر مرافئ وقواعد بحرية ، وكان العرب في حاجة ماسة إلى أسطول ؛ وكانت مصر تصدر الحبوب إلى القسطنطينية ، وكانت بلاد العرب في حاجة إلى الحبوب ؛ وكانت الحكومة البيزنطية منذ قرون طوال تستخدم العرب في شرطتها ، ولم يكن هؤلاء ممن يعوقون زحف الفاتحين ؛ وكان المسيحيون اليعاقبة في مصر قد قاسوا

(*) أو بلوزيوم ويسميا العرب الفرما . (المترجم)

الأمريين من جراء اضطهاد بيزنطية ؛ ولهذا رحبوا بقدوم المسلمين ، وأعانوهم على الاستيلاء على منفيس ، وأرشدوهم إلى الإسكندرية (*) ، وبما سقطت تلك المدينة في يد عمرو بعد حصار دام ثلاثة عشر شهراً (٦٤١) كتب إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يقول : « أما بعد ، فإنني فتحت مدينة لا أصف ما فيها ، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودي عليهم الجزية وأربعمائة ملهى للملوك » (**)(١) .

وحال عمرو بين العرب وبين نهب المدينة وفضل أن يفرض عليها الجزية . ولم يكن في وسعه أن يدرك أسباب الخلافات الدينية بين المذاهب المسيحية المختلفة ، ولذلك منع أعوانه اليعاقبة أن ينتقموا من خصومهم الملكانيين ، وخالف ما جرت عليه عادة الفاتحين من أقدم الأزمنة فأعلن حرية العبادة لجميع أهل المدينة .

وبعد ، فهل أحرق عمرو مكتبة الإسكندرية ؟ لقد وردت هذه القصة أول ما وردت في كتاب عبد اللطيف (١١٦٢ - ١٢٣١) ، أحد العلماء المسلمين (٢) ؛ ثم أوردتها بتفصيل أوفى بار هيربوس Bar Hebraeus (١٢٢٦ - ١٢٨٦) وهو مسيحي يهودي الأصل من شرقي بلاد الشام كتب باللغة العربية ، باسم أبي الفرج ، مختصراً لتاريخ العالم . وقد جاء في روايته لهذه القصة أن رجلاً من أهل الإسكندرية يسميه العرب حنا الأجرومي (واسمه عند الغربيين John Philoponus) طلب إلى عمرو أن يعطيه ما في المكتبة من مخطوطات ؛

(*) ليست هذه الرواية من الروايات الموثوق بها ، ويذكر الدكتور بطر في كتابه فتح العرب لمصر مصدر هذه الرواية ويورد الأدلة التي تنقصها . اقرأ هذا في الترجمة العربية لهذا الكتاب في هامش ص ٢٥٧ .

(**) في الأصل الإنجليزي أربعمائة حمام ولكن حتى نقلنا عن ابن الحكم والدكتور بطر يذكر أنها أربعة آلاف حمام ، وقد تكون أربعمائة أقرب إلى العقل . (المترجم)

فكتب عمرو إلى الخليفة عمر يستأذنه في هذا ؛ فرد عليه عمر ، كما تقول الرواية ، بقوله : « أما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به ، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها » . وتختصر الأسطورة هذا الرد الأسطوري في أغلب الظن إلى هذا الجواب القصير : « احرقها لأن ما فيها كله يحتويه كتاب واحد هو القرآن » . ويضيف بارهريوس أن عمراً أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد بها ، فما زالوا يوقدون بملفات البردي والرق ستة أشهر (٦٤٢) . ومن نقط الضعف في هذه القصة : (١) أن جزءاً كبيراً من هذه المكتبة قد أحرقه المسيحيون المتحمسون في عهد البطرق توفيلس عام ٣٩٢ (٢) ، (٢) وأن ما بقي فيها قد تعرض لإهمال المهملين وعداء الأعداء تعرضاً « أدى إلى ضياع معظمه قبل عام ٦٤٢ » (٤) ، (٣) وأن أحداً من المؤرخين المسيحيين لم يشر بكلمة إلى هذا الحادث المزعوم في الخمسمائة العام الواقعة بين حدوثه وبين ذكره لأول مرة ، مع أن أحد هؤلاء المؤرخين وهو أوتكيوس Eutychius كبير أساقفة الإسكندرية في عام ٩٣٣ (*) قد وصف فتح العرب للإسكندرية بتطويل كبير (٥) . ولهذا فإن معظم المؤرخين يرفضون هذه القصة ويرون أنها من الخرافات الباطلة . هذا ولقد كان ضياع مكتبة الإسكندرية شيئاً فشيئاً من المأسى الكبرى في تاريخ العالم ؛ وذلك بأنها ، كما يعتقد العلماء ، كانت تحتوي على مجموعة كاملة مما نشر من كتب إسكلس ، وسفكل ، وبولبيوس ، وايني ، وتاستوس ، ومائة آخرين من المؤلفين الذين وصلت إلينا كتبهم مختلطة مهوشة ، كما كانت تحتوي على النصوص الكاملة لمن جاء قبيل سقراط من الفلاسفة ، وهي النصوص التي لم يبق منها إلا جذاذات متفرقة ، وعلى آلاف من المجلدات في تاريخ اليونان ، والمصريين ،

(*) ولقد أورد الدكتور بطلر في كتابه « فتح العرب لمصر » المترجم إلى اللغة العربية

من الأدلة القاطعة ما يفند هذه القصة . (المترجم) .

والرومان ، وفي العلوم الطبيعية ، والآداب والفلسفة .

وحكم عمرو مصر حكماً صالحاً ؛ وخصص جزءاً من الضرائب الباهظة (*) لتطهير قنوات الري وترميم الجسور ، وإعادة فتح الخليج الذي كان يوصل النيل بالبحر الأحمر ، والذي يبلغ طوله ثمانين ميلاً . وبذلك استطاعت السفن وقتئذ أن تصل من البحر المتوسط إلى المحيط الهندي (٦) (وقد طمر هذا الخليج مرة أخرى في عام ٧٣٢ وأهمل شأنه) . وأنشأ عمرو عاصمة جديدة لمصر في الموضع الذي أقام فيه معسكره عام ٦٤١ وسميت العاصمة الجديدة بالقسطاط ، وهي كما يبدو الكلمة المرادفة لخيمة . وكانت هذه المدينة بداية مدينة القاهرة الحاضرة ؛ وقد ظلت قرنين كاملين (٦٤١ - ٨٦٨) مقر الولاة المسلمين يحكمون منه مصر نيابة عن خلفاء دمشق أو بغداد .

وبعد فإن من الحقائق المقررة أن كل فتح يخلق حدوداً جديدة تتعرض للخطر فتوحى بفتح جديد . وأراد المسلمون أن يحموا مصر الإسلامية من هجوم على جناحها الغربي من قيرين البيزنطية فزحفوا بجيش تبلغ عدته أربعين ألف مقاتل مخترقين الصحراء إلى برقة ، واستولوا عليها ، ووصلوا قرب قرطاجنة . وغرس قائد المسلمين رحمة في الرمل جنوبي مدينة تونس الحالية بنحو ثمانين ميلاً ، وأقام في هذه النقطة معسكره ، وأنشأ بذلك (٦٧٠) مدينة من أكبر المدائن الإسلامية وهي مدينة القيروان - « المحطة » (**). وعرف عاهل الروم أن الاستيلاء على قرطاجنة يمكن المسلمين من السيطرة على البحر المتوسط ، ويفتح لهم الطريق إلى أسبانيا ؛ فسير إليها الجند والأسطول ؛ ونسى البربر إلى حين حقدهم على الروم فانضموا إليهم في الدفاع عن المدينة ، فظلت تقاوم المسلمين ولم تخضع إليهم إلا في عام ٦٩٨ . ولم يلبث

(*) لعل المؤلف يقصد الضرائب التي كانت باهظة في أيام الرومان لأن المعروف أن عمراً

خفف الضرائب ووزعها توزيعاً عادلاً . (المترجم)

(**) الذي في قاموس الفيروزبادي أن القيروان القافلة . (المترجم)

شمال إفريقيا أن خضع للمسلمين حتى شاطئ المحيط الأطلنطي : واقتنع البربر - بشروطهم هم أنفسهم تقريباً - بقبول حكم المسلمين ، ولم يلبثوا أن اعتنقوا الدين الإسلامي ، وقسمت أملاك المسلمين في إفريقيا إدارياً إلى ثلاث ولايات : مصر وعاصمتها القسطنطينية ، وإفريقية وعاصمتها القيروان ، والمغرب (مراکش) وعاصمته فاس .

وظلت هذه الولايات نفسها قرناً من الزمان تعترف بالسيادة لخلفاء المشرق ؛ ولكن انتقال مقر الخلافة إلى بغداد زاد من صعاب الاتصال والنقل ، فأخذت الولايات الإفريقية تتحول واحدة بعد الأخرى إلى ممالك مستقلة . فقامت أسرة الأدارسة في فاس (٩٧٤) ، وأسرة بني الأغلب (٨٠٠ - ٩٠٩) تحكم في القيروان ، وقامت الأسرة الطولونية (٨٦٩ - ٩٠٥) في مصر . ولم تعد مصر - هرى العالم القديم - نهياً للحكام الأجانب ، ودخلت في نهضة صغرى جديدة ، وفتح أحمد بن طولون عام (٨٦٩ - ٨٨٤) بلاد الشام وضمها إلى مصر ، وبنى له عاصمة جديدة تدعى القطائع (ضاحية من ضواحي القسطنطينية) وشجع العلوم والفنون ، وشاد القصور ، والحمامات العامة ، وأنشأ بهارستاناً ، ومسجداً عظيماً لا يزال حتى اليوم ناطقاً بفضله . وقلب ابنه نجمارية (٨٨٤ - ٨٩٥) هذا النشاط إلى ترف ، ورصع جدران قصره بالذهب ، وفرض على شعب مصر الضرائب الباهظة لينشئ لنفسه بركة من الزئبق ليتأرجح بلطف على فراشه المصنوع من الجلد المنفوخ حتى يغلبه النوم . وخالفت الأسرة الطولونية بعد أن حكمت أربعين عاماً أسرة أخرى تركية أنشأها الإخشيد (٩٣٥ - ٩٦٩) . ولم تكن لهذه الممالك الإفريقية جذور تمتد إلى دماء الشعب أو تقاليده ، ولهذا كان لا بد لها أن تقيم حكمها على القوة والزعامة الحربيتين ، فلما أضعفت الثروة حماسها العسكرية ذابت قوتها واختفت من الوجود .

وأيدت أعظم الأسر الحاكمة الإفريقية سياستها الحربية بعقيدة دينية تكاد

تبلغ درجة التعصب ؛ ذلك أن أبا عبد الله قام في بلاد تونس عام ٩٠٥ وأخذ يدعو إلى المذهب الشيعي وإلى عقيدة الأئمة السبعة ، ويبشر بقرب ظهور المهدي ، وقد بلغ من قوة أتباعه البربر أن استطاع إزالة حكم الأغالبة من القيروان . وكان قد أعد العدة لتحقيق ما أثاره في أتباعه من آمال مرتقبة فاستدعى من بلاد العرب عبيد الله بن محمد ، وزعم أنه حفيد عبد الله إمام الاسماعيلية ، وأعلن أنه المهدي المنتظر ، ونادى به ملكا (٩٠٩) ، وما لبث هذا الداعية أن قُتِلَ بأمر مليكه . وقال عبيد الله إن نسبه يمتد إلى السيدة فاطمة بنت النبي (صلى الله عليه وسلم) وسمى أسرته بالأسرة الفاطمية نسبة لها .

واستعاد شمال إفريقية تحت حكم الأغالبة والفاطميين ما عرفه من رخاء في أيام مجد قرطاجنة تحت حكم الرومان . ذلك أن الفاتحين المسلمين في عنفوان شبابهم في القرن التاسع أنشئوا ثلاث طرق كبرى يتراوح طولها بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ ميل وتخترق الصحراء الكبرى إلى بحيرة شاد وتمبكتو ، كما أنشئوا من الثغور في الشمال والغرب بونة ، ووهران ، وسبتة ، وطنجة ؛ وقامت تجارة عظيمة مربحة ربطت بلاد السودان بالبحر المتوسط ، وبلاد الإسلام الشرقية بمراكش والأندلس ، ونقل المهاجرون الأسبان إلى مراكش الصناعات الجلدية ؛ وأضحت مدينة فاس مركزاً لتبادل التجارة مع أسبانيا ، واشتهرت بأصباغها وعطورها ، وطرابيشها الحمر المغربية .

وانزع الفاطميون في عام ٩٦٩ مصر من بني الإخشيد ، ومالبثوا أن بسطوا حكمهم على بلاد العرب والشام . ونقل المعز الخليفة الفاطمي عاصمة ملكه إلى القاهرة ؛ وكانت امتداداً للقطائع في جهة الشمال الشرقي كما كانت القطائع نفسها امتداداً للفسطاط في نفس هذا الاتجاه . وحذا المعز حذو أسلافه فشرع يغزو البلاد ويفتح الأمصار . وفي عهد المعز (٩٥٣ - ٩٧٥) وابنه العزيز (٩٧٥ - ٩٩٦) أعاد يعقوب بن كلس - وهو يهودي من بغداد اعتنق الإسلام - تنظيم الإدارة

المصرية ، وجعل الفاطميين أغنى حكام زمانهم . يشهد بذلك أنه حين توفيت
رشيدة أخت المعز خلفت وراءها ٢٧٠٠٠٠٠ دينار (١٢٥٨ و ١٢٥٩
دولار أمريكي) ، و ١٢٠٠٠٠٠ ثوب ؛ ولما ماتت أخته عبدة تركت ثلاثة
آلاف مزهرية فضية ، وأربعمئة سيف ذات نقوش دمشقية ذهبية ، وثلاثين
ألف قطعة من المنسوجات الصقلية ، ومقداراً ضخماً من الجواهر (٧) . ولكن
لا شيء يسقط كالنجاح ؛ وآية ذلك أن الحاكم الخليفة التالي (٩٩٦ - ١٠٢١)
جن من فرط الثراء والسلطان ، فدبر اغتيال عدد كبير من الوزراء ،
واضطهد المسيحيين واليهود ، وأحرق كثيراً من الكنائس والمعابد ، وأمر
بهدم كنيسة بيت المقدس التي فيها قبر المسيح ، وكان تنفيذ هذا الأمر من
أسباب قيام الحروب الصليبية . وكأنما أراد الحاكم أن يعيد سيرة الإمبراطور
كلجيولا ، فنادى بنفسه إلهاً ، وأرسل البعوث لنشر هذه العقيدة بين الناس ،
فلما أن قتل بعض هؤلاء الرسل عاد هو إلى حب المسيحيين واليهود ، وأعاد
بناء كنائسهم ومعابدهم . واغتيل الحاكم في سن السادسة والثلاثين .

وعم الرخاء مصر رغم ما كان يخص به الخلفاء أنفسهم من امتيازات واسعة
لأنها كانت حلقة الاتصال التجاري بين أوروبا وآسية ، وازداد عدد السفن التي
ينقل عليها تجار الهند والصين بضائعهم من تلك البلاد مارة بالخليج الفارسي ،
والبحر الأحمر ، والنيل إلى مصر . واضمحلت ثروة بغداد ، وضعفت قوتها بينما زاد
سلطان القاهرة وثوراؤها . وقد زار ناصري خسرو العاصمة الجديدة في عام ١٠٤٧
وجاء في وصفه لها أن بها عشرين ألف بيت ، معظمها من الآجر ترتفع إلى خمس
طبقات أوست ، وعشرين ألف متجر مملوءة بالذهب ، والجواهر ، والأقمشة
المطرزة ، والحرير إلى درجة لا يجد الإنسان فيها مكاناً يجلس (٨) فيه . وكانت
الشوارع الكبرى مظلمة من وهج الشمس وتضيؤها المصابيح بالليل . وكانت
الحكومة تحدد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأعلى منها ، ويطاف به في شوارع
المدينة على جمل ، وهو يدق بيده ناقوساً ويعلن بنفسه جريمة (٩) . وكان ذوو

الثروات الضخمة كثرى العدد ؛ وقد استطاع أحد التجار ، وهو مسيحي ، أن يطعم السكان كلهم من ماله الخاص مدة خمس سنين أصيبت فيها البلاد بالهحط بسبب انخفاض فيضان النيل ؛ وترك يعقوب بن كلس وراءه ضياعاً تقدر قيمتها بما يوازي ثلاثين مليون دولار أمريكي (١٠) . واشترك هؤلاء الأثرياء مع الخلفاء الفاطميين في بناء المساجد ، وإنشاء دور الكتب ، والمدارس الكبرى ، وتشجيع العلوم والفنون . وكان حكم الفاطميين بوجه عام حكماً صالحاً خيراً طابعه الحرية والتسامح على الرغم مما كان يشينه أحياناً من قساوات ، ومن ترف وإتلاف ، وبالرغم من الاستغلال المعتاد للعمال ، ومن العدد المطلوب من الحروب ؛ وكان يضارع في رخائه وثقافته أى عهد آخر في تاريخ مصر (١١) .

وأخذ حكم الفاطميين في الضعف أيام المستنصر (١٠٣٦ - ١٠٩٤) ، وهو ابن أمة سودانية . وقد أقام هذا الخليفة سرادقاً فخماً (*) يقضى فيه أوقات متعته ، وعاش عيشة الموسيقى ، والخمر ، واللذة ؛ وكان يقول إن تلك الحياة خير لديه من التحديق في الحجر الأسود ، والاستماع إلى صوت المؤذن الممل ، وشرب الماء العكر (من بئر زمزم في مكة) (١٢) . وثار عليه جنوده الأتراك في عام ١٠٦٧ ، وأغاروا على قصره ، ونهبوا منه كنوزاً فنية لا تقدر بثمن ، ومقداراً عظيماً من الجواهر ، وحمل خمسة وعشرين بعيراً من المخطوطات اتخذ الضباط الأتراك بعضها وقوداً لتدفئة بيوتهم ، كما اتخذوا جلودها المصنوعة من الجلد الرقيق البديع لإصلاح نعال جواريتهم . ولما توفي المستنصر تمزقت أوصال الدولة الفاطمية ، وانقسم جيشها الذي كان من قبل قوياً إلى شيع متنازعة من بربر ، وسوادنيين ، وأتراك ؛ وكانت إفريقية ومراكش قد انفصلتا عنها ، وثار عليها فلسطين ، وضاعت منها بلاد الشام . ولما أن خلع صلاح الدين آخر الخلفاء الفاطميين في عام ١١٧١ ، كانت أسرة أخرى من الأسر التي حكمت مصر قد ساقها السلطان والانغماس في الملذات إلى ما ساق إليه سابقاتها من الضعف والفناء .

(*) على شكل الكعبة .



(شكل هـ) صحن الجامع الأزهر بالقاهرة

oboeikend.com

الفصل الثاني

الحضارة الإسلامية في إفريقية

كان الأمراء والخلفاء في القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، ينافس بعضهم بعضاً في إقامة المباني ، وتشجيع التصوير ، والموسيقى ، والشعر ، والفلسفة ؛ ولكن كل ما بقي من المخطوطات من ذلك الوقت في شمالي إفريقية منجوع الآن في دور الكتب التي لم يبدأ علماء الغرب في ارتيادها إلا منذ وقت قريب (*) . وقد اندثرت معظم آيات الفن ولم يبق ما يشهد على عظمة ذلك العصر وروحه إلا المساجد وحدها . ففي القيروان مسجد سيدي عقبة الذي أنشئ أولاً في عام ٦٧٠ ووجدت بناؤه سبع مرات ، والذي يرجع الجزء الأكبر منه إلى عام ٨٣٨ . وتعتمد أروقته ذات العقود المستديرة على مئذات من العمد الكورنثية المأخوذة من خرائب قرطاجنة ، ومينبره آية رائعة من آيات النحت الخشبي ، ومحرابه من الرخام السماقي والقاشاني ؛ ومئذنته المربعة الضخمة - وهي أقدم مئذنة في العالم (١٣) - أصبحت هي الطراز السوري الذي أقيمت على مثاله مآذن الغرب ؛ وبفضل هذا المسجد أصبحت القيروان رابعة المدن الإسلامية المقدسة « أبواب الجنة الأربعة » ولا تقل مساجد فاس ، ومراكش ، وتونس ، وطرابلس عنها في الروعة والفخامة إلا قليلاً .

وكانت المساجد في القاهرة ضخمة كثيرة العدد ؛ ولا تزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بنحو ثلثمائة من هذه المساجد ؛ ومن أشهرها مسجد عمرو بن العاص ، وقد بدئ بإنشائه في عام ٦٤١ ، وأعيد بناؤه في القرن العاشر ؛ ولم يبق من

(*) وقد شرعت جامعة الدول العربية في البحث عن هذه المخطوطات في هذه البلاد وفي غيرها من بلدان آسية وأوربا وتصويرها . (المترجم)

أجزائه الأولى في هذه الأيام إلا عمده الكورنثية التي أنقذها العرب بحكمتهم من الجرائب الرومانية والبيزنطية . ولا يزال مسجد ابن طولون محتفظا بشكله الأصلي ونقوشه الأولى ، ويحيط بصحنه الواسع سور ذو شرفات ، وفي داخله عقود مستدقة (غير مستديرة) هي أقدم ما يوجد من نوعها في مصر ، إذا استثنينا عقد مقياس النيل بالروضة (٨٦٥) - وهو بناء مقام على جزيرة الروضة بالقاهرة يقاس به ارتفاع ماء النهر . وربما كان هذا الطراز الرشيق من العقود قد انتقل من مصر إلى أوروبا القوطية عن طريق صقلية والنورمان (١٤) . وفي مئذنة المسجد (ذات السلم الخارجي) والشبيهة بصروح الزجورات البابلية ، وفي القبة المقامة فوق قبر ابن طولون ، عقود على شكل حذاء الفرس ، وهي إحدى المظاهر الإسلامية التي لا ترتاح إليها العين كما ترتاح إلى غيرها من مظاهر الفن الإسلامي . ويروى أن أحمد بن طولون أراد أن يرفع العقود على ثلثائة عمود ، فلما علم أن هذه العمدة لا يمكن الحصول عليها إلا إذا انتزعت من العمار الرومانية والمسيحية ، قرر أن يقيم هذه العقود بدلا من هذا على عمد ضخمة من الآجر (١٥) ، وربما كان هذا الطراز من العمدة قد أوحى هو الآخر بعنصر من عناصر الطراز القوطي . وآخر ما نذكره من خصائص هذا المسجد أن بعض نوافذه قد ملئت بالزجاج الملون ، وبعضها بالشبايك الحصية (*) على شكل ورود أو نجوم أو غيرها من الأشكال الهندسية ، وهذه الأشكال ترجع إلى تاريخ غير معروف على وجه التحقيق .

وفي ٩٧٠ - ٩٧٢ أنشأ الجامع الأزهر جوهر الصقلي - وهو عبد مسيحي اعتنق الإسلام وكان القائد الذي فتح مصر للفاطميين . ولا تزال بعض الأجزاء الأصلية من هذا المسجد في مكانها ، وفيه أيضا نجد العقود المستدقة قائمة على ٣٨٠ عموداً من الرخام ، والجرانيت ، والرخام السماقي . وقد شيد جامع الحاكم بأمر الله

(*) - ذات شبكة من الأصابع المصنوعة من الجص . (المترجم)

من الحجر ، ولا يزال معظمه باقيا وإن لم تكن تقام فيه الصلاة الآن ،
وفي وسعنا أن نتصور ما كان عليه من عظمة في العصور الوسطى بالنظر إلى
نقوشه العربية الطراز ، الرشيقة ، المصنوعة من الجص ، ومن الكتابات
الكوفية الجميلة التي يزدان بها إفريزه . وقد كانت هذه المساجد ، التي تبدو
الآن معاقل أشبه بالقلاع - وما من شك في أنها قد صممت لتكون قلاعاً
أيضاً - تزدان بكثير من روائع النحت ، والكتابات ، والفسيفساء ،
والمحاريب المطعمة ، والقناديل التي أضحت الآن تحفاً نادرة في المتاحف ،
وكان بمسجد ابن طولون وحده ١٨٠٠٠ قنديل كثير منها من الزجاج
المطلي بالمينا المختلف الألوان (١٦) .

وكانت الفنون الصغرى شائعة في إفريقية الإسلامية ، يمارسها المسلمون
بما عرف عنهم من الصبر والدقة . فالقاشاني الوراق يشاهد في جامع القيروان ،
وقد وصف ناصرى خسرو (١٠٥٠) الحزف الذي كان يصنع في القاهرة
بأنه رقيق بلع من شفيفه أن اليد إذا وضعت في خارجه تستطاع رؤيتها من
داخله (١٧) . واحتفظ الزجاج المصري السوري بكل ما كان له من جمال
في العهود القديمة ، وتحفظ متاحف البندقية وفلورنسن واللوفر بالآنية
المصنوعة من البلور الصخري في عهد الفاطميين ، وكان ناحتو الخشب
يدخلون بهجة على النفوس بنقوشهم البديعة على أبواب المساجد ، والمنابر ،
والمحاريب ، والنوافذ الشبكية . وأخذ المسلمون المصريون عن رعاياهم
الأقباط فن زخرفة الصناديق والنضد وغيرها من الأدوات بترصيعها
أو تطعيمها بالعاج ، أو الأبنوس ، أو الصدف . وكانت الجواهر كثيرة
موفورة ، وحسبنا أن نقول إنه لما أن نهب الجنود الأتراك المأجورون
حجرات قصر المستنصر حملوا معهم آلاف المصنوعات الذهبية - كالمحابر ، وقطع
الشطرنج ، والمزهريات ، والطيور ، والأشجار الاصطناعية المزينة بالأحجار
الكريمة (١٨) ، وكان من بين ما انتهوه ستائر من الحرير المطرز بخيوط
الذهب نقشت عليها صور أكابر الملوك وكتبت عليها سيرهم . كذلك تعلم المسلمون

من الأقباط فن طبع الرسوم وبصمها على المنسوجات بقطع من الخشب ؛
ويبدو أن هذه الصناعة انتقلت من مصر الإسلامية إلى أوروبا على أيدي
الصلبيين ، وأنها ساعدت على نشأة فن الطباعة ؛ وكان التجار الأوربيون
يقدرّون منسوجات الدولة الفاطمية تقديراً يفوق سائر المنسوجات ،
ويتحدثون وهم مدهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندرية ، التي تبلغ
من الرقة درجة يستطاع معها أن تمر في خاتم الإصبع (١٩) . ويحدثنا المؤرخون
عن طنافس من عهد الفاطميين ، وعن خيام منسوجة من المخمل ، والساتان ،
والدمقس ، والحرير ، والأقمشة المنسوجة من خيوط الذهب ، مزينة كلها
بالرسوم ، ومن هذه خيمة صنعت لليازوري وزير المستنصر عمل فيها مائة
وخمسون صانعاً أكثر من تسع سنوات . وبلغت نفقاتها ثلاثين ألف دينار
(١٤٢٠٠٠ دولار) ، وصور عليها ، كما يقولون ، جميع ما عرف
من أنواع الحيوان في العالم كله ، عدا « الإنسان الذئب » (*) . غير أن
الرسوم الفاطمية كلها لم يبق منها إلا قطع من المظلمات في دار الآثار العربية
بالقاهرة ، ولم تبق نقوش دقيقة من العهد الفاطمي في مصر ؛ لكن المقرئ
الذي كتب في القرن الخامس عشر تاريخاً للتصوير - يقول إن مكتبة الخلفاء
الفاطميين تحتوي على مئات من المخطوطات المزينة بكثير من الرسوم الدقيقة
من بينها ٢٤٠٠ مصحف .

وكانت مكتبة الخلفاء بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله تحتوي مائة ألف من
المجلدات ؛ وكان بها في عهد المستنصر ٢٠٠٠٠٠ . ويقول المؤرخون إن الكتب
كانت تعار لمن يطلبها من الدراسين ذوى السمعة الطيبة من غير أجر . وفي عام
٩٨٨ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز أن يعلم على حسابه خمسة
وثلاثين طالباً في الجامع الأزهر وأن يتكفل بنفقات معيشتهم ، وبهذا نشأت

(*) . يريد الإنسان نفسه . (المترجم)

أقدم جامعة في العالم كله . ولما نمت هذه المدرسة واتسعت اجتذبت إليها طلاباً من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، كما اجتذبت جامعة باريس بعد مائة عام من ذلك الوقت طلاباً من جميع أنحاء أوروبا . ومن ذلك الوقت أخذ الخلفاء ، والوزراء ، والأغنياء من الأهلين يهبون الأموال لتعليم الطلاب بالبحان في تلك الجامعة حتى بلغ طلابها في وقتنا الحاضر ١٠٠٠٠ طالب وعدد الأساتذة ثلثمائة (٢٠) . ومن أجل المناظر التي تقع عليها عين السائح العالمي منظر الطلاب وهم مجتمعون في أروقة هذا المسجد القائم منذ ألف عام ، تجلس فيها كل طائفة في نصف دائرة إلى بجانب عمود أمام أحد العلماء (*) . وكان كبار العلماء الداعية الصيت يفدون إلى الأزهر من كافة أرجاء العالم الإسلامي ليعلموا الطلاب علوم النحو ، والبلاغة ، والرياضة ، والعروض ، والمنطق ، والعلوم الدينية ، والحديث ، والتفسير ، والشريعة الإسلامية . ولم يكن الطلاب يؤدون أجوراً ، كما لم يكن الأساتذة يتناولون مرتبات ، وإذ كانت هذه الجامعة الشهيرة تعتمد على الأموال الحكومية ، وهبات المحسنين فقد أخذت تنزع بالتدريج إلى التشدد في أمور الدين ، وكان لعلمائها تأثير ميثب للآداب الفاطمية ، والفلسفة ، والعلوم ، ولهذا لم نسمع عن وجود شعراء مجيدين في عهد تلك الأسرة .

وأنشأ الحاكم في القاهرة « دار الحكمة » ، وكانت مهمتها الرئيسية نشر المذهب الشيعي وتعاليمه ، ولكن منهجها الدراسي كان يشمل أيضاً علمي الفلك والطب . وأقام الحاكم أيضاً مرصداً فلكياً ، وأعان بالمال على بن يونس (المتوفى سنة ١٠٩٠ م) ، وهو في رأينا أعظم علماء الفلك المسلمين . وبعد أن ظل هذا العالم يرصد السماء سبعة عشر عاماً أتم « الأزياج الحاكمة » التي توضح حركات الكواكب ، ومواقيتها ، وحدد بدقة أكثر من ذي قبل ميل مستوى الفلك ،

(*) لا حاجة إلى القول بأن هذا الوصف ينطبق على الأزهر منذ نصف قرن أما في الوقت الحاضر فإن النظام في الأزهر شبيه كل الشبه بالنظام في أرق المدارس والجامعات . (المترجم)

ومبادرة الاعتدالين ، وزاوية اختلاف منظر الشمس .

وأشهر الأسماء كلها بين علماء المسلمين المصريين اسم الحسن بن الهيثم المعروف عند الأوربيين باسم « الهازن Alhazen . وقد ولد في البصرة عام ٩٦٥ واشتهر فيها بنبوغه في الهندسة والرياضة . وترامى إلى الحاكم أن ابن الهيثم قد وضع خطة لضبط فيضان النيل السنوي فدعاه إلى القاهرة ، ولكنه تبين أن الخطة غير عملية فاضطر إلى الاختفاء عن عين الخليفة ذى النزوات الشاذة . وافتتن الرجل ، كما افتتن جميع المفكرين في العصور الوسطى ، بمحاولات أرسطو في ربط المعارف كلها بعضها ببعض ، فكتب عدة شروح وتعليقات عن مؤلفات هذا الفيلسوف ، لم يصل إلينا شيء منها . وأهم ما يشتهر به ابن الهيثم عندنا الآن كتاب المناظر في البصريات وهو في أغلب الظن أعظم مؤلف في العصور الوسطى بأجمعها جرى على الأسلوب العلمي في طريقته وتفكيره . وقد درس ابن الهيثم انكسار الضوء عند مروره في الأوساط الشفافة كالهواء ، والماء واقتراب مع اختراع العدسة المكبرة قربا جعل روجريو Roger Bacon ، ووينلو Wnelo وغيرهما من الأوربيين بعد ثلاثمائة عام من ذلك الوقت يعتمدون على بحوثه فيما بذلوه من الجهود لاختراع المجهر والمرقب . وقد رفض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس الفلكي القائلة بأن رؤية الجسم تنشأ من خروج شعاع ضوئي من العين يصل إلى الجسم المرئي ، وقال إن صورة الجسم المرئي تصل إلى العين ومنها تنتقل بوساطة الجسم الشفاف - أي العدسة (٢١) . ولاحظ أثر الجو في ازدياد الحجم الظاهري للشمس والقمر إذا كانا قريبين من الأفق ، وأثبت أن انكسار الأشعة في الجو يجعل ضوء الشمس يصل إلينا حتى بعد أن يخفى قرصها تحت الأفق بتسع عشرة درجة ، وعلى هذا الأساس قدر ارتفاع الهواء الجوي بعشرة أميال (إنجليزية) . وحلل العلاقة بين ثقل الهواء الجوي وكثافته ، وبين أثر كثافة هذا الهواء في أوزان الأجسام ، واستخدم قوانين رياضية معقدة في دراسة فعل

الضوء في المرايا الكرية ، والتي في شكل القطع المكافئ* ، وعند مروره في العدسات الزجاجية الحارقة . ورصد صورة الشمس المائلة لصورة نصف القمر وقت الحسوف على جدار قائم أمام ثقب صغير في مصراع شبك . وهذا هو أول ما ذكر عن الغرفة المظلمة التي يعتمد عليها التصوير الشمسي بكافة أنواعه . وليس في وسعنا مهما قلنا عن ابن الهيثم أن نبالغ في بيان أثره في العلوم الأوربية ، وأكبر ظننا أنه لولا ابن الهيثم لما سمع الناس قط بروجر بيكن ؛ وهاهو ذا روجر بيكن نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريات من Opus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه . والجزء السادس من هذا المؤلف يكاد كله يعتمد على كشف هذا العالم الطبيعي ابن القاهرة . ولقد ظلت الدراسات الأوربية للضوء حتى ذلك العصر المتأخر عصر كبلر وليوناردو تعتمد على بحوث ابن الهيثم .

وأبرز النتائج التي أسفر عنها فتح العرب لشمال إفريقيا هو اختفاء المسيحية من هذا الإقليم اختفاء تدريجياً ولكنه يكاد يكون تاماً . ذلك أن البربر لم يعتنقوا الإسلام فحسب ، بل أصبحوا فوق ذلك أكثر أنصاره تعصباً له ودفاعاً عنه . وما من شك في أن العوامل الاقتصادية كان لها دخل في هذه النتيجة الحاسمة : فقد كان غير المسلمين يؤدون الفريضة ، التي أعفى منها إلى وقت ما من يعتنقون الإسلام . ولما أن عرض والى مصر العربي على أهل البلاد هذا الإعفاء عام ٧٤٤ اعتنق الإسلام ٢٤٠٠٠ من المسيحيين (٢٢) . وربما كان الاضطهاد(*) الذي وقع على المسيحيين ، وهو اضطهاد لم يكن يقع إلا في بعض العهود ولكنه شديد ، قد أثر في كثيرين من المصريين فحملهم على الدخول في دين الحكام . غير أن أقلية قبطية في مصر ظلت مستمسكة بدينها بشجاعة وأقامت كنائسها شبيهة

(*) يلاحظ هنا حرص المؤلف على إثبات أن هذا الاضطهاد لم يكن يقع إلا في بعض العهود ؛ أي أنه لم يكن هو السياسة المتبعة وذلك عملاً بأوامر الدين الإسلامي نفسه وسياسة معظم الخلفاء . (المترجم)

بالحصون ، كانت تؤدي فيها مناسكها سرآ(*) ، ولا تزال باقية في تلك البلاد إلى يومنا هذا . ولكن كنائس الإسكندرية ، وقورينة ، وفرطاجنة ، وإفريقية ، التي كانت تزدهم من قبل بالمصلين أخذت تخلو منهم وتتداعى ، وانمحت من الأذهان ذكريات أثناسيوس ، وسيريل Cyril ، وأوغسطين ، ونجت نيران المنازعات بين الأريوسيين ، والدوناتيين ، واليعاقبة المسيحيين ، وحل محلها النزاع بين الشيعة وأهل السنة من المسلمين . وأيد الفاطميون سلطانهم بجمع طائفة الإسماعيلية في جماعة كبرى ذات مراسم وطقوس ودرجات متفاوتة ، واستخدموا أعضائها في التجسس والدسائس السياسية . وانتقلت طقوس هذه الجماعة إلى بيت المقدس وأوروبا ، وكان لها أكبر الأثر في أنظمة فرسان المعبد والشيعة المستنيرة Illuminate وغيرها من الجماعات السرية التي قامت في العالم الغربي كما كان لها أكبر الأثر أيضا في طقوسها وملابسها . وترى رجل الأعمال الأمريكي بين الفينة والفينة مسلماً متحمساً غيوراً ، يفخر بعقيدته السرية ، وطرבוشه الفاسي ومسجده الإسلامي (**).

(*) لم يكن أقباط مصر في حاجة إلى أن يمارسوا شعائرهم سرآ بل كانوا يمارسونها جهراً حتى في أكثر العصور استبداداً . (المترجم)

(**) في هذا القول بعض الغموض ولعل المؤلف يقصد أن من بين رجال الأعمال الأمريكيين مسلمين يفخرون بدينهم ويتباهون بشيائهم ويؤدون الصلاة في المساجد . (المترجم)

الفصل الثالث

الإسلام في بلاد البحر المتوسط

٦٤٩ - ١٠٧١

أدرك زعماء الإسلام ، بعد فتح الشام ومصر ، أن ليس في مقدورهم أن يدافعوا عن سواحل بلادهم من غير أسطول . وسرعان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت العائز البيزنطية (٦٥٢ ، ٦٥٥) ، ثم احتلوا قورسقة في عام ٨٠٩ وسردينية في عام ٨١٠ وإقريطش (كريت) في ٨٢٣ ، ومالطة في ٨٧٠ ؛ وبدأ في عام ٨٢٧ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية ، فأرسل الأغلبة أمراء القيروان الحملة تلو الحملة وتقدموا إلى فتحها بقليل من النهب والدم المهرق ؛ فسقطت بالرم في عام ٨٣١ ، ومسينا في ٨٤١ ، وسرقوسة في ٨٧٨ ، وتارمينا في ٩٠٢ . ولما أن ورث الخلفاء الفاطميون ملك الأغلبة (٩٠٩) كان مما ورثوه من أملاكهم جزيرة صقلية ؛ ولما نقل الفاطميون عاصمة ملكهم إلى القاهرة أعلن حسين الكلبي والي صقلية من قبلهم نفسه أميراً عليها ، وكانت له عليها سيادة تكاد تكون كاملة ، وأسس فيها الأسرة الكلبية ، وفي عهدها بلغت الحضارة الإسلامية في صقلية ذروة مجدها .

وأصبح مركز المسلمين حصيناً منيعاً بعد أن صارت لهم السيادة على البحر المتوسط ، فأخذوا يتطلعون إلى المدن القائمة في جنوبي إيطاليا . وكانت القرصنة وقتئذ مما يدخل في نطاق العادات الشريفة ، وكان المسيحيون والمسلمون على السواء يشنون الغارات على سواحل البلاد الإسلامية والمسيحية ليقبضوا منها على « الكفرة » ويبيعوهم في أسواق الرقيق ، ولهذا شرعت أساطيل المسلمين ، ومعظمها

من تونس وصقلية ، تهاجم الثغور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي . فاستولى المسلمون في عام ٨٤١ على بارى القاعدة البيزنطية الكبرى في الجنوب الشرقي من إيطاليا ، وفي العام التالي انقضوا انقضاضاً سريعاً على إيطاليا استجابة لدعوة وجهها إليهم لمبارد دوق بنقشوثو Benevento ليساعده على سالرنو Salerno ، ثم عادوا منها بعد أن أتاها الحقول وخربوا الأديرة . وفي عام ٨٤٦ نزل ألف ومئتان من المسلمين في أستييا Ostia ، وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار رومة ، ونهبوا ضواحي المدينة وكنيستي القديسين بطرس وبولس ، ثم عادوا على مهل إلى سفنهم . ورأى البابا باليو Leo الرابع أن السلطة المدنية عاجزة عن تنظيم الدفاع عن إيطاليا ، فأخذ هذه المهمة على عاتقه ، وعقد حلفاً بين رومة وبين أملي Amalfi ، وناپلي ، وجيتا Gaeta ومد سلسلة في عرض نهر التير ليمنع العدو من اجتيازه . وبذل العرب في عام ٨٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على عاصمة المسيحية في الغرب ، فقابلهم الأسطول الإيطالي المتحد بعد أن باركه البابا ، وهزمهم ، وقد صور رفائيل منظر الواقعة في قصر الفاتيكان ، وفي عام ٨٦٦ جاء الإمبراطور لويس الثاني من ألمانيا ، وصد العرب الذين كانوا يغيرون من جنوبي إيطاليا على شبه الجزيرة وأرجعهم إلى بارى وتارنتو Taranto ؛ وما وافى عام ٨٨٤ حتى أخرجوا من جميع شبه الجزيرة .

ولكن غاراتهم عليها لم تنقطع ، وظلت إيطاليا الوسطى جيلاً من الزمان يغشاها جو من الخوف والفرع في كل يوم من أيام حياتها . ففي عام ٨٧٦ أغاروا على كميانيا ونهبوها ، وهددوا رومة تهديداً اضطر البابا إلى أن يؤدي لهم جزية سنوية مقدارها ٢٥٠٠٠ منقوص (حوالي ٢٥٠٠٠ دولار أمريكي) حتى يكفوا عن الإغارة عليها (٢٣) . وفي عام ٨٨٤ أحرقوا دير مونتى كاسينو العظيم ودمروه عن آخره . وشنوا غارات أخرى متقطعة نهبوا فيها وادى نهر الأنيو Anio . ودامت الحال على هذا المنوال حتى اجتمعت قوات البابا وإمبراطوري

بيزنطية وألمانيا ، ومدائن إيطاليا الوسطى والجنوبية ، وهزمت العرب على نهر كرجليانو (٩١٦) وانتهى بذلك عصر الفتوح الإسلامية في إيطاليا ، وهو العهد الذي دام مائة عام ، كادت فيها إيطاليا تصبح ملكاً للعرب . ولو أن رومة سقطت في قبضتهم لرحفوا على البندقية ، ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان إسلاميتان عظيمتان . ثرى إلى أى حد تتعلق مصائر الناس بنتائج الحروب ومصادقاتها !

ونخضت الثقافة الصقلية المتعددة الأصول في أثناء هذه الحوادث الحربية بحكم عادتها إلى الفاتحين الجدد ، واتخذت لها طابعاً إسلامياً أبهى وأقوى من طابعها القديم ، واختلط في شوارع العاصمة الإسلامية بانورمس القديمة Panormus وبالرم العربية ، وبالرمو الإيطالية ، الصقليون ، واليونان ، واللمبارد ، وكلهم يكره بعضهم بعضاً من الناحية الدينية ، ولكنهم يعيشون معاً صقليين عاديين في عواطفهم ، وشعرهم ، وجرائمهم . وفيها شاهد ابن حوقل حوالى عام ٩٧٠ نحو ثلاثمائة مسجد ، وثلاثمائة من معلمى المدارس ينظر إليهم الأهلون بعين الاحترام رغم ما اشتهر به هؤلاء المدرسون - كما يقول العالم الجغرافى - من قلة الذكاء ونخفة الأحلام (٣٤) . هذا وإذ كانت صقلية تستمتع بقسط كبير من المطر وضوء الشمس ، فقد كانت تربتها غاية في الخصب ، فلما جاءها العرب المهرة وأحسنوا تنظيم أحوالها الاقتصادية جنوا ثمار هذا التنظيم ، وأضحت بالرم ثغراً تجارياً عظيماً بين أوروبا المسيحية وإفريقية الإسلامية ، وما لبثت أن صارت من أغنى المدن في بلاد الإسلام ؛ وكان حب المسلمين للملابس الجميلة ، والجواهر المتألثة ، وفنون الزينة ، مما جعل الحياة في الجزيرة تسير سيراً هادئاً في غير عجلة ولكن في غير إسفاف . ويصف الشاعر الصقلى ابن حمديس (١٠٥٥ - ١١٣٢) الساعات التى يقضيها الشاب البالرمى في متعته ، ويحدثنا عن قصفه ومرحه حتى منتصف الليل ، وعن اختلاط الرجال والنساء في الولائم والحفلات بعد أن طرد ملك المرح الموم ، وعن (٢٠ - ج - ٢ - مجلد ٤)

التفتيات المغنيات اللاتي يدغدغن العود بأصابعهن اللطيفة ؛ ويرقصن كأنهن الأتار الساطعة فوق الأغصان اللدنة (٢٥) .

وكان في الجزيرة آلاف من الشعراء لأن العرب كانوا يحبون الفكاهة الحلوة ، والشعر الموزون ، ولأن الحب الصقلي كان يمدم بموضوعات جمّة مثيرة للخيال . وكان في الجزيرة علماء لأن بالرم كان فيها جامعة ؛ وكان فيها أطباء عظام ، لأن الطب الإسلامي الصقلي قد أثر تأثيراً ذا بال في مدرسة سالرنو الطيبة (٢٦) . ولقد كان نصف ما امتازت به صقلية النورمانية من البهاء والعظمة صدى لعهدنا العربي الزاهر ، وتراثاً شرقياً من الصناعات والصناعات أورثه العرب ثقافة فنية راغبة في أن تتلقى العلم على أي جنس وأي دين . ولما أن فتح أهل الشمال (النورمان) صقلية (١٠٦٠ - ١٠٩١) أعانوا بفتحهم الزمان على محو آثار المسلمين في صقلية ؛ وهاهو ذا الكونت روجر Count Roger يفخر بأنه قد سوى بالأرض « المدائن ، والقلاع ، والقصور العربية التي بذل المسلمون في إقامتها أعظم الفنون وأعجبها » (٢٧) . ولكن الطراز المعماري الإسلامي خلف طابعه على قصر لازيزا ، وعلى سقف كاپلا پلاتينا Capella Polatina ، ففي هذا المعبد القائم في قصر الملوك النورمان زين المزار المسيحي بالنقوش العربية الإسلامية .

الفصل الرابع

الإسلام في أسبانيا

٧١١ - ١٠٨٦

١ - الخلفاء والأمراء

لم يكن العرب هم الذين فتحوا أسبانيا أولاً بل الذين فتحوها هم المغاربة ، فقد كان طارق من البربر ، وكان في جيشه سبعة آلاف من بني جنسه ، مقابل ثلاثة آلاف من العرب ، وقد بخلد اسمه ، إذ سميت به الصخرة التي نزلت قواته عند قاعدتها ، فقد سماها البربر جبل طارق واختصره الأوربيون إلى جبرواتر Gibraltar . وكان الذي سير طارقاً إلى فتح أسبانيا هو موسى بن نصير وإلى شمال إفريقية العربي . ثم عبر موسى البحر في عام ٧١٢ ، ومعه ١٠٠٠٠ من الجنود العرب و ٨٠٠٠ من البربر وحاصر أشبيلية ومريده ، ولام طارقاً لأنه تعدى حدود الأوامر الصادرة له ، وضربه بالسوط ، وزجه في السجن ، ولكن الخليفة الوليد استدعى موسى وأطلق سراح طارق فواصل هذا القائد فتوحه . وكان موسى قد عين ولده عبد العزيز حاكماً لأشبيلية ، ولكن سليمان أخا الوليد ارتاب في نوايا عبد العزيز وظنه يعمل ليستقل ببلاد الأندلس ، فأرسل إليه من اغتاله . وجرى برأسه إلى سليمان في دمشق ، وكان قد تولى الخلافة بعد أخيه ، فبعث يستدعى موسى ، فلما جاء طلب إليه أن يعطيه رأس ولده حتى يسبل عينيه . ولم يمض على موسى عام واحد حتى مات من الحزن (٢٨) . ومن حقنا أن نعتقد أن هذه القصة ليست إلا خرافة من الخرافات التي تروى عن حب الملوك لسفك الدماء .

وعامل الفاتحون أهل البلاد معاملة لينة طيبة ، ولم يصادروا إلا أراضي الذين قاوموهم بالقوة ، ولم يفرضوا على الأهلين من الضرائب أكثر مما كان يفرضها عليهم ملوك القوط الغربيين ، وأطلقوا لهم من الحرية الدينية ما لم تتمتع به أسبانيا إلا في أوقات قليلة نادرة . ولما أن توطد مركز المسلمين في أسبانيا ، عبروا جبال البرانس ودخلوا غاله يريدون أن يجعلوا أوربا ولاية تابعة لدمشق . والتقى بهم بين تور وبواتيه على بعد ألف ميل شمالى جبل طارق جيش من مؤلف من قوى يوديس Eüdes دوق أكوئين ، وشارل دوق أستراسيا Austrasia . ودارت المعركة سبعة أيام هزم المسلمون بعدها في واقعة من أهم الوقائع الحاسمة في التاريخ (٧٣٢) ؛ وفيها قررت مصادقات الحرب مرة أخرى الدين الذي يتبعه الملايين التي لا يحصى عديدها من بنى الإنسان . ومن هذا الوقت أطلق على شارل اسم شارل مارتلس Charles Martellus أى شارل المطرقة . وأعاد المسلمون الكرة في عام ٧٣٥ واستولوا على أرليس Arles ، ثم فتحوا أفنيون Avignon في عام ٧٣٧ ونحروا وادى نهر الرون حتى ليون . وفي عام ٧٥٩ أخرجهم پيپن القصير Pepin the Short نهائيا من جنوبي فرنسا ؛ ولكن الأربعين عاما التي تنقلوا خلالها في ذلك الإقليم كانت في أغلب الظن ذات أثر قوى فيما يتصف به أهل لانجويدك Languedoc من تسامح غير عادى بين الأديان المختلفة ، ومن مرج كثير ومن حب لأغاني الغزل غير المباح .

ولم يكن خلفاء دمشق يقدرون أسبانيا حق قدرها ، فلم تكن تعرف عندهم حتى عام ٧٥٦ إلا باسم « الأندلس » ، وكان يحكمها وال يعين من القيروان . لكن شخصية زوائية نزلت في أسبانيا عام ٧٥٥ ، وكان سلاحها الوحيد هو ما يجرى في عروقها من الدم الملكي ، وأراد الله أن تؤسس فيها أسرة لا تقل في مجدها واثرائها عن خلفاء بغداد . ذلك أنه لما أمر بنو العباس في عام ٧٥٠ أن يقتل جميع الأمراء الأمويين ، لم ينبج من هؤلاء الإمراء إلا عبد الرحمن أحد أحفاد

الخليفة هشام . وطارده أعداؤه من قرية إلى قرية ، فاضطر أن يعبر نهر الفرات الواسع سباحة ، واجتاز الصحراء إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى مصر وإفريقية حتى وصل آخر الأمر إلى مراکش . وكانت أخبار الثورة العباسية قد ألهبت نيران المنافسة الحزبية القديمة بين العرب ، والسوريين ، والفرس ، والمغاربة في أسبانيا . وكان في تلك البلاد طائفة من العرب مخلصه للأمويين تخشى أن يعرض الخلفاء العباسيون على حقها في تملك الأراضي التي وهبها لهم ولاية بني أمية ، فدعوا عبد الرحمن للانضمام إليهم وتولى قيادتهم . فجاء إليهم وعينوه أميراً على قرطبة (٧٥٦) ، وهزم جيشاً أرسله الخليفة المنصور لينزعها منه ، وبعث برأس قائد هذا الجيش ليعلق أمام أحد القصور في مكة .

ولعل هذه الحوادث هي التي منعت انتشار الدين الإسلامي في أوروبا : ذلك أن أسبانيا الإسلامية قد أضعفتها الحرب الأهلية ، وانقطعت عنها المعونة الخارجية فلم تواصل الغزو والفتح ، بل انسحب المسلمون من شمالي أسبانيا ، وانقسمت شبه الجزيرة من القرن الحادي عشر قسمين أحدهما مسلم والآخر مسيحي ، يفصلهما خط يمتد من كوامبرا Coimbra ماراً بسرقسطة ومخازيا لنهر الإبرة . وازدهر النصف الجنوبي الإسلامي بعد أن بسط فيه إواء السلم عبد الرحمن الأول وخلفاؤه ، فعمه الرخاء ، وترعرع فيه الشعر والفن . واستمتع عبد الرحمن الثاني بثمار هذا الرخاء ؛ فقد اتسع وقته ، بين حروبه مع المسيحيين على حدوده ، وقمعه للثورات التي كان يقوم بها رعاياه ، وصد الغارات التي كان يشنها النورمان على سواحل بلاده ، اتسع وقته لتجميل قرطبة بالقصور والمساجد ، وإجزال العطاء للشعراء ، وكان يعفو عن المذنبين ويعاملهم معاملة لينة ربما كان لها بعض الأثر فيما حدث بعده من اضطراب اجتماعي .

وكان عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) آخر الشخصيات البارزة من أسرة بني أمية في أسبانيا ؛ فقد آلت إليه الخلافة وهو في الحادية والعشرين

من عمره ، ووجد الأندلس تمزقها الانقسامات العنصرية ، والأحقاد الدينية ، واضطراب جبل الأمن ، ومساعي أشبيلية وطليطلة للاستقلال عن قرطبة . وقبض عبد الرحمن ، رغم ما اتصف به من دمائه الخلق ورقة الحاشية ، واشتهاره بالكرم والمجاملة ، على زمام الموقف بيد من حديد وقمع فتنة المدن الثائرة ، وأخضع أشرف العرب الذين أرادوا أن يحدو حدومعاصريهم الفرنسيين ، فبسطوا على ضياعهم الواسعة الغنية سيادتهم الإقطاعية ، ودعا إلى بلاطه رجالا من مختلف الأديان كان يستشيرهم في شئون الحكم ؛ وعقد المحالفات التي يضمن بها توازن القوى بين جيرانه وأعدائه ، وأدار شئون البلاد بجد وعناية بدقائق الأمور ، لا يقلان عما كان يتصف به نابليون في هذه الناحية . وكان هو الذي يضع الخطط الحربية لقواده ، وكثيراً ما كان ينزل إلى ميدان القتال بنفسه ؟ وصد غزوة سانكو صاحب ثره *Sancho of Navarra* ، واستولى على عاصمته ودمرها ، وأرهب بذلك المسيحيين فلم يغيروا على بلاده مرة أخرى في أثناء حكمه . ولما رأى في عام ٩٢٩ أن له من القوة ما لا يقل عن أي حاكم في زمانه ، وأدرك أن الخليفة العباسي في بغداد قد أصبح العوبة في أيدي الحرس التركي ، اتخذ لنفسه لقب خليفة — وأمير المؤمنين ، وحامي حمى الدين . وقد ترك وراءه بعد وفاته نبذة كتبها بخط يده قدر فيها قيمة الحياة البشرية تقديراً غير مبالغ فيه : « مضت خمسون سنة مذ توليت الخلافة فتمتعت بما لا يزيد عليه شيء من الثراء والمجد والنعم ، فاحترمني الملوك وخافوني وحسدوني وجبانى الله بأقصى ما يرغب فيه إنسان ، فأحصيت أيام السرور التي صفت لي دون تكدير في هذه المدة الطويلة فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفاتها وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها » (*)(٢٩)

(*) من كتاب نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب للمقري . (المترجم)

وأفاد ابنه الحكيم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) كما يفيد الرجل العاقل الحكيم من هذه الأعوام الخمسين التي حكمها أبوه بحزم وجدارة ، والتي لم يستمتع فيها بقسط موفور من السعادة ، وكان في أثناء حكمه آمناً من الخطر الخارجي ، والفتن الداخلية ، فوجه جهوده إلى تزيين قرطبة وغيرها من المدن ، وأنشأ فيها المساجد ، والمدارس الكبرى ، والبيمارستانات ، والأسواق ، والحمامات العامة ، وملاجئ الفقراء (٣٠) ، وجعل جامعة قرطبة أعظم معاهد التعليم في زمانه ، وأجزل العطاء لمئات الشعراء والفنانين والعلماء . وفيه يقول المقرئ المؤرخ الإسلامي :

وكان (الخليفة الحكيم) محبا للعلوم مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب بأنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله . . . إن عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفي كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم والعلماء سوقاً نافقة جلبت إليه بضائعه من كل قطر . . . وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالات من التجار ويرسل إليهم الأموال لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه . وبعث في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني - وكان نسبه في بني أمية - وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه نسخة منه قبل أن يخرج إلى العراق (*) .

وبينا كان الخليفة العالم يعني بمسرات الحياة ونعيمها ، كان يترك تصريف شؤون الحكم ، وتوجيه السياسة القومية نفسها إلى وزيره اليهودي القدير حسداى ابن شيروط ، ويترك قيادة الجيوش إلى قائد نابه مجرد من الضمير تجمعت حول اسمه مادة لكثير من المسرحيات أو القصص الخيالية المسيخية . وقد أسمته هذه الروايات والقصص باسم المنصور ، أما اسمه الحقيقي فهو محمد بن أبي عامر

وهو ينتمى إلى أسرة عربية عريقة النسب ولكنها قليلة الثراء . وكان يكسب قوته بكتابة المعروضات لمن يريد من الناس أن يتوجه بمطالب إلى الخليفة ، ثم أصبح كاتباً في ديوان قاضى القضاة ، ولما بلغ السادسة والعشرين من عمره فى عام ٩٦٧ اختير لإدارة أملاك عبد الرحمن أكبر أبناء الحكم . ثم تقرب إلى الملكة صبح أم الغلام ، وفتنها بمجاملتها والثناء عليها ، وأثر فيها بجدء وكفايته ، وما لبث أن أصبح هو المصرف لأملاكها وأملاك ولدها ، ولم يمض عام واحد حتى عين مديراً لدار الضرب . ومن ذلك الوقت أصبح سخياً على أصدقائه سخاء جعل حاسديه يتهمونه بالارتشاء والحيانة . واستدعاه الحكم ليحاسبه على ما أوتمن عليه من المال ، وعرف ابن أبى عامر أن المال الذى فى عهدهته سيكون ناقصاً فطلب إلى صديق له غنى أن يقرضه قيمة العجز ؛ ثم توجه إلى القصر مسلحاً بهذا السلاح القوى ، وواجه به من أهموه ، وانتصر عليهم انتصاراً حمل الخليفة على أن يسند له عدة مناصب تدر عليه المال الكثير . ولما مات الحكم أفلح ابن أبى عامر فى تنصيب هشام الثانى ابن الحكم خليفة (٩٧٦-١٠٠٩) و (١٠١٠-١٠١٣) بعد أبيه وذلك بأن دبر بنفسه قتل منازعه فى الخلافة ، وبعد أسبوع واحد تولى هو الوزارة (٣٢) .

وكان هشام الثانى رجلاً ضعيفاً عاجزاً كل العجز عن سياسة الدولة ، ولذلك كان ابن أبى عامر هو الخليفة فى كل شىء ما عدا الاسم ، واتهمه أعداؤه بحق بأنه يحب الفلسفة أكثر مما يحب الدين الإسلامى ؛ وأراد أن يلجم ألسنتهم فدعا رجال الدين أن يخرجوا من مكتبة الحكم الكبرى كل ما يجدونه فيها من الكتب التى تخالف مذهب أهل السنة ، وأن يحرقوا هذه الكتب ، وبهذه الطريقة الهمجية الإجرامية اشتهر بين الناس بالتقى والصلاح . وضم فى الوقت نفسه أصحاب المواهب العقلية إلى جانبه بأن بسط حمايته فى السر على الفلاسفة ، وأخذ يرحب بالأدباء فى بلاطه ، وآوى فيه عدداً كبيراً من الشعراء أجرى عليهم

مرتبات من بيت المال ، وكان هؤلاء الشعراء يسرون في ركابه حين يخرج إلى الحرب ويتغنون بانتصاراته . وشاد مدينة جديدة هي مدينة الزاهرة في شرق قرطبة ضمت قصره ، ومكاتب الإدارة ؛ أما الخليفة الذي عني بتدريبه على الانهماك في الفلسفة فقد بقي مهملاً يكاد يكون سجيناً في القصر الملكي القديم . وأراد ابن أبي عامر أن يزيد مركزه قوة فأعاد تنظيم الجيش وجعل معظمه من مرتزقة البربر والمسيحيين الذين كانوا يكرهون العرب ، ولا يشعرون بأن للدولة عليهم حقوقاً ، ولكنهم كانوا يجزونهم على سخائه ، وحسن معاملته بالولاء له شخصياً . ولما أن ساعدت ولاية ليون Leon المسيحية ثورة قامت عليه في بلاده ، فتك بالشوار ، وأوقع بأهل ليون هزيمة منكرة ، وعاد منتصراً إلى عاصمته ؛ ولقب من ذلك الحين بالمنصور . وكثرت المؤامرات عليه ، ولكنه كان يحيطها كلها بشبكة من الجاسوسية والاختيال في الوقت المناسب ؛ ولما انضم ابنه عبد الله إلى إحدى هذه المؤامرات ، وافتضح أمره قطع رأسه . وكان المنصور مثل صلا الروماني لا يترك محسناً إلا أثابه ولا مسيئاً إلا انتقم منه .

وغفر الناس له جرائمه لأنه قمع جرائم غيره ، وحقق العدالة للأغنياء والفقراء على السواء ، حتى لم تكن الحياة ولا الأموال في قرطبة أعظم أمناً في وقت من الأوقات مما كانتا في أيامه ، ولم يسع الناس إلا أن يعجبوا بشأته ، ومثابرتة ، وفطنته ، وشجاعته . وحدث في يوم من الأيام والمجلس منعقد برياسته أن شعر بألم في ساقه ؛ فأمر باستدعاء الطبيب ، ولما حضر أشار بكيها بالنار . فلم يقص المنصور المجلس ، وقبل أن يحرق جسمه دون أن يظهر عليه ما يدل على ألمه . ويقول المقرئ : إن المجلس لم يعرف شيئاً مما حدث إلا بعد أن فاحت رائحة اللحم وهو يحترق (***) (٣٣) . وكان مما فعله أيضاً ليجمع القلوب على محبته أن وسع مسجده

(*) هذا هو النص فنقله عن المقرئ : « إن المنصور كان به داء في رجله واحتاح إلى الكي ، فأمر الذي يكويه بذلك وهو قاعد في موضع مشرف على أهل مملكته ، فجعل يأمر

قرطبة واستخدم في توسيعه أسرى المسيحيين ، واشترك هو بنفسه في أعمال البناء بفأسه ، ومجرفه ، ومِسْجَتَه (*) ، ومنشاره . وأدرك أن الحاكم الذي ينتصر في الحروب ، عادلة كانت أو ظالمة ، يعلو شأنه بين معاصريه وبين الأجيال المستقبلية ، ولهذا شن الحرب من جديد على ليون ، واستولى على عاصمتها ودمرها وذبح أهلها . وكان في ربيع كل عام تقريباً يسير على رأس حملة جديدة لمحاربة الأقاليم الشمالية المسيحية ، وقد عاد من هذه الحملات جميعها بلا استثناء مكلاً بالنصر . من ذلك أنه لما استولى في عام ٩٩٧ على مدينة سنتياجوده كيمبستيليا Santiago de Compstela ، ودمر ضريح القديس جيمس الشهير ، أرغم الأسرى المسيحيين على أن يحملوا أبواب الكنيسة وأجراسها على أكتافهم في موكب نصره حتى دخل قرطبة (٣٤) . (وقد أعيدت هذه الأجراس فيما بعد إلى كيمبستيليا محمولة على ظهر أسرى الحرب المسلمين) .

ولم يقنع المنصور بما كان له في بلاد الأندلس الإسلامية من مقام ، وإن كان في الواقع سيدها بلا منازع ، بل كان يتوق إلى أن يكون سيدها اسماً وفعلاً ، وأن يؤسس فيها أسرة مالكة . ففي عام ٩٩١ تخلى عن منصبه لابنه عبد الملك ، ولم يكن يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، وأضاف إلى ألقابه الأخرى لقبى السيد والملك الكريم وحكم البلاد حكماً مطلقاً . وكان يرغب في أن يموت في ميدان القتال ، ويعد العدة بالفعل لهذه الحاتمة ، فكان إذا خرج لحرب من الحروب أخذ معه كفنه . وقد غزا قشتالة في عام ١٠٠٢ وهو وقتئذ في الحادية والستين من عمره ، واستولى على مدنها ، ودمر أديرتها ، ونحرب حقولها ، ثم مرض في طريق العودة إلى بلاده ، ولكنه لم يسمح للأطباء أن يعنوا به ، واستدعى إليه ابنه

- وينهى ، ويقرى القرى في أموره ورجله تكوى ، والناس لا يشمرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم ، فتمجبوا من ذلك وهو غير مكترث . (المترجم)
(*) المسجّة : خشبة يطين بها . (المترجم)

وأخبره أنه سيدركه الموت بعد يومين اثنين ، فلما بكى عبد الملك قال له إن هذا البكاء دليل على أن الدولة ستتهار بعد قليل (٣٥) . وقد صدقت النبوءة فانهارت خلافة قرطبة بعد جيل من ذلك التاريخ .

وعمت الفوضى بلاد الأندلس الإسلامية بعد موت المنصور ، فأم يكن أمراؤها يجلسون على العرش لإزماً قصيراً ، وكثرت بينهم حوادث الاغتيال ، والمنازعات العنصرية ، وحروب الطبقات ؛ ورأى البربر أنهم محتقرون فقراء في الدولة التي أقاموا دعائمها بسواعدهم وسيوفهم ، وأنهم قد طوح بهم إلى بطاح استرمدوره Estremadura القاحلة أو جبال ليون الباردة ، فثروا من حين إلى حين على العرب الحاكمين . وكان عمال المدن المستغاثون يخذلون على من يستغلونهم ، فكانوا يخرجون عليهم ويقتلونهم ويستبدلون بهم غيرهم . وأجمعت سائر الطبقات على كره تلك الأسرة الحاكمة أسرة ابن أبي عامر التي كادت في عهد ولده تستأثر بجميع مناصب الدولة ومقومات السلطة . ومات عبد الملك في عام ١٠٠٨ وتولى الوزارة بعده أخوه عبد الرحمن ، وكان عبد الرحمن رجلاً مستهتراً يشرب الخمر علناً ولا يتورع عن ارتكاب الخطايا ، يفضل اللهو على النظر في شئون الحكم ، فلم يلبث أن طرد من منصبه على أثر ثورة اشتركت فيها جميع الأحزاب تقريباً . وأفلت الزمام من أيدي زعماء الثورة فهبت الجماهير قصور الزاهرة وأحرقتها عن آخرها ؛ وفي عام ١٠١٢ استولى البربر على قرطبة نفسها وأعملوا فيها السلب والنهب ، وذبحوا نصف أهلها ، وطرّدوا النصف الباقي منها ، وجعلوا هذه المدينة عاصمة بربرية . بهذه الفقرة الموجزة يقص أحد المؤرخين المسيحيين ثورة أسبانيا الإسلامية الشبيهة كل الشبه بالثورة الفرنسية .

لكن الحماسة التي تدفع صاحبها إلى الهدم والتدمير قلما تقترن بالصبر الذي يتطلبه البناء والتعمير . ففي أثناء حكم البربر اختل الأمن والنظام وعم السلب والنهب ، وزاد عدد المتعطلين ؛ وخرجت على قرطبة المدائن الخاضعة لها ومنعت

عنها الخراج ، وحتى ملاك الضياع الواسعة استأثروا بالسلطة كلها في ضياعهم .
لكن من بقي في قرطبة من العرب أخذوا ينتعشون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا حل
عام ١٠٢٣ طردوا البربر من العاصمة وأجلسوا على العرش عبد الرحمن
الخامس ، غير أن العامة من أهل قرطبة رأوا أنه لا يرجى خير من العودة
إلى العهد القديم ، فاستولوا على القصر وبايعوا بالخلافة محمداً المستكني أحد
زعماهم (١٠٢٣) . وعين محمد أحد عمال النسيج وزيراً له ، ثم اغتيل
هذا الوزير ، ودس السم للخليفة الشعبي ، ثم اتحدت الطبقتان العليا والوسطى
وبايعت بالخلافة هشاماً الثالث (١٠٢٧) . وجاء دور الجيش بعد أربع
سنين ، فقتل وزير هشام ، وطلب إلى هشام نفسه أن ينزل عن الخلافة ؛
وعقد مجلس من أصحاب الرأي في المدينة وأيقن المجتمعون أن النزاع على
العرش قد جعل قيام الحكم الصالح غير مستطاع ، فألغى الخلافة الأندلسية ،
وأحل محلها مجلساً للدولة ، واختير ابن جمهور رئيساً لهذا المجلس فحكم
الجمهورية الجديدة بالعدل والحكمة .

لكن هنا جاء بعد فوات الأوان ، أي بعد أن اضمحلت السلطة
السياسية وقضى على الزعامة الثقافية في قرطبة ، فوصلت بذلك إلى حال
لا يرجى منها شفاء . وروع العلماء والشعراء بكثرة الحروب الأهلية فقرءوا
من « جوهرة العالم » إلى بلاط طليطلة ، وغرناطة ، وأشبيلية . واقتسم
بلاد الأندلس الإسلامية ثلاثة وعشرون من ملوك الطوائف شغلهم الدسائس
والمنازعات فيما بينهم عن إغارة أسبانيا المسيحية على الإمارات الإسلامية
واستيلائها عليها واحدة بعد واحدة . وازدهرت غرناطة بعض الوقت في
حكم الحاخام صمويل هليبي Samuel Halevi المعروف عند العرب باسم
إسماعيل بن نغرلة . واستقلت طليطلة عن قرطبة في عام ١٠٣٥ . ثم خضعت
لحكم المسيحيين بعد خمسين عاماً من استقلالها .

وورثت أشبيلية مجد قرطبة ، وكان بعضهم يظنها خيراً من العاصمة القديمة
وأجمل منها ؛ وكان الناس يحبونها لجمال حدائقها ، ونخيلها ، وورودها ، وما فيها

من مرح دائم ، وموسيقى ، ورقص ، وغناء . وكانت تتوقع سقوط قرطبة فتعجلت هي وأعلنت استقلالها في عام ١٠٢٣ ، وعثر أبو القاسم محمد قاضي قضاتها على صانع حصر شبيه بهشام الثاني فنادى به خليفة ، وآواه وأمسك هو بزمامه ، وأقنع بلنسية ، وطرطوشة وقرطبة نفسها بمبايعته . وهذه الطريقة السهلة أقام قاضي القضاة الداهية أسرة بني عباد القصيرة الأجل . ولما مات في عام ١٠٤٢ خلفه ابنه عباد المعتضد وحكم أشيلية بمهارة وقسوة مدة سبع وعشرين سنة ، وأخذ يمد سلطانه حتى كان نصف أسبانيا الإسلامية يؤدي له الجزية . وورث الملك من بعد ابنه المعتمد (١٠٦٨ - ١٠٩١) وهو في السادسة عشرة من عمره ، ولكنه لم يرث عنه مظامعه ولا قسوته . وكان المعتمد أعظم شعراء الأندلس ، يفضل مجالس الشعراء والموسيقين على مجالس الساسة وقواد الجند ، ويجزل العطاء لمنافسيه من الشعراء ، ولا يحسد هم على تفوقهم ، فلم يكن يرى من الإسراف أن يجيز إحدى الملح الشعرية بألف دينار^(٣٦) . وكان يحب شعر ابن عمار ، ولذلك اتخذه وزيراً له ، وسمع جارية تدعى الرميكية ترتجل جيد الشعر ، فابتاعها ، وتزوجها ، وظل حتى وفاته يحبها حباً شديداً ، وإن لم يهمل غيرها من الغانيات في قصره . وكانت الرميكية تملأ القصر بضحكها ، وأحاطت سيدها بجو من المرح ، جعل رجال الدين يلومونها على عدم اكتراث زوجها بشئون الدين ، وما آلت إليه مساجد المدينة التي أوشكت أن تخلو من المصلين . لكن المعتمد مع هذا كان قادراً على أن يحكم ، وأن يحب ، ويغنى ، فلما أن هاجمت طليطلة مدينة قرطبة ، واستغاثت قرطبة به ، سير إليها حملة أنقذت المدينة من طليطلة ، وأخضعها لأشيلية . وحمل الملك - الشاعر مدى جيل كامل مليء بالقلقل لواء حضارة لا تقل ازدهارا عن حضارة بغداد في أيام هرون الرشيد ، وحضارة قرطبة في عهد المنصور .

٢ - الحضارة في بلاد الأندلس الإسلامية

لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعمت به في أيام الفاتحين العرب « (٣٧) . ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم (*) قد يتطلب تحمسه شيئاً من التقليل من ثنائه ، لكن هذا الحكم بعد أن ننقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً .

لسنا ننكر أن الأمراء والخلفاء الأندلسيين قد اتصفوا بالقسوة التي يرى ميكثلي أنها لازمة لاستقرار الحكومات وثباتها ، ولسنا ننكر أن قسوتهم وصلت في بعض الأحيان إلى حد الهمجية وغلظة القلب ، يدل على ذلك ما فعله المعتمد حين زرع الأزهار في جماجم الموتى من أعدائه ؛ وما فعله المعتضد حين قطع أوصال رجل ظل صديقاً له معظم حياته ثم غدر به هذا الصديق وأهانته آخر الأمر (٣٨) . ولكن المقرئ يورد في مقابل هذه الأمثلة النادرة مئات من الشواهد الدالة على عدل حكام الأندلس الأمويين وجودهم ودمائهم أخلاقهم (٣٩) . وهم لا يقلون في هذه الصفات عن أباطرة الروم في زمانهم ، وما من شك في أن حكمهم كان أفضل من حكم من سبقوهم من القوط الغربيين ؛ ولقد كانوا أقدر أهل زمانهم على تصريف الشؤون العامة في العالم الغربي ؛ فكانت قوانينهم قائمة على العقل والرحمة ، تشرف على تنفيذها هيئة قضائية حسنة النظام . وكان أهل البلاد المغلوبون يحكمون في معظم الأحوال حسب قوانينهم وعلى أيدي موظفين منهم (٤٠) . وكان في المدن شرطة تسهر على الأمن فيها ، وقد فرضت على الأسواق ، والمكايل ، والموازين ، رقابة محكمة ؛ وكانت الحكومة تقوم بإحصاء عام للسكان والأموال في فترات منظمة ؛ وكانت الضرائب معقولة إذا قورنت بما كانت تفرضه منها رومة أو بيزنطية . وبلغت

(*) هو استاذي لين پول ، وذلك القول منقول عن كتابه « حكم المسلمين في أسبانيا »

(المترجم)

الإيرادات في أيام عبد الرحمن الثالث ١٠٠٠ ر ٤٥٠ ر ١٢ دينار ذهبي (أى ما يعادل ٧٥٠ ر ٢١٣ ر ٥٧ دولار أمريكي) - وأكبر الظن أن هذا كان يفوق إيرادات حكومات البلاد المسيحية اللاتينية مجتمعة (٤١) . ولم يكن مصدر هذه الإيرادات هو الضرائب العالية بقدر ما كان أثراً من آثار الحكم الصالح ، وتقدم الزراعة والصناعة ، ورواج التجارة (٤٢) .

وكان حكم العرب نعمة وبركة قصيرة الأجل على الزراع من أهل البلاد . ذلك أن الفاتحين لم يبقوا على الضياع التي كبرت فوق ما يجب ، والتي كان يمتلكها القوط الغربيون ، وحرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع (٤٣) . ولكن القوى التي كانت في هذه القرون تعمل لتثبيت دعائم الإقطاع ظلت تعمل عملها في أسبانيا أيضاً ، وإن لقيت فيها من المقاومة أشد مما لقيته في فرنسا ؛ فقد امتلك العرب بدورهم مساحات واسعة من الأراضي ، وكان يقوم بزراعتها مستأجرون قريبو الشبه برقيق الأرض . وكان العبيد يلقون على أيدي المسلمين معاملة أحسن قليلاً من التي كانوا يلقونها على أيدي سادتهم الأولين (٤٤) . وكان في مقدور عبيد غير المسلمين أن يتحرروا من الرق بمجرد اعتناقهم الإسلام ، وكان العرب في معظم الأحوال يتركون أعمال الزراعة إلى أهل البلاد ، ولكنهم كانوا يستعينون بأحدث ما ألف من الكتب في علومها ، وبفضل توجيههم بلغت هذه العلوم في أسبانيا من التقدم أكثر مما بلغته في أوروبا المسيحية (٤٥) . واستبدل بالثيران البطيئة الحركة ، التي كانت تستخدم حتى ذلك الوقت في جميع أنحاء أسبانيا للحرث والجر ، البغال ، والحمير ، والخيل . وأدى تهجين السلالات الأسبانية والعربية من الخيل إلى وجود الجياد الأصيلة التي كان يمتطيها فرسان العرب وكبليرو Caballero (فرسان) الأسبان . ونقلت بلاد الأندلس الإسلامية

من آسية زراعة الأرز ، والحنطة السوداء(*) ، وقصب السكر ، والرمان ،
والقطن ، والسبانخ ، والأسفرج(**) ، والموز ، والكراز ، والبرتقال ،
والليمون ، والسفرجل ، والليمون الهندي ، والحوخ ، ونخيل البلح ،
والتين ، والشليك ، والزنجبيل ، والمر وصناعة الحرير(٤٦) . وكانت زراعة
الكروم من الأعمال الكبرى في بلاد الأندلس ، وإن كان الدين الإسلامي
يحرم الخمر . وأحالت حدائق الخضراوات ، وغياض الزيتون ، وبساتين الفاكهة
مساحات من الأندلس - وخاصة حول قرطبة وغرناطة ، وبلنسية - جنات
على الأرض . كما استحالت جزيرة ميورقة Majorca ، التي فتحها العرب
في القرن الثامن بفضل علمهم بالزراعة وعنايتهم بها فردوساً مليئاً بالفاكهة
والأزهار ، تشرف عليها أشجار النخيل التي سميت الجزيرة باسمها فيما بعد .

وأغنت مناجم أسبانيا المسلمين بالذهب ، والفضة ، والقصدير ، والنحاس ،
والحديد ، والرصاص ، والشب ، والكبريت ، والزئبق . وكان المرجان
يستخرج من البحر على طول سواحل أسبانيا ، كما كان اللؤلؤ يصطاد
قرب سواحل قطلونية ، وكان الياقوت يستخرج من مناجم حول باجة
ومالقة . وتقدمت الصناعات المعدنية في البلاد تقدماً عظيماً ، فاشتهرت
مرسية بمصنوعاتها من الحديد والشبهان ، كما اشتهرت طليطلة بالسيوف ،
وقرطبة بالدروع . وازدهرت كذلك الصناعات اليدوية ، فكانت
قرطبة تصنع الجلد القرطبي الذي يستخدمه الحداءون في أوروبا المعروفون
باسم Cordwainer نسبة إلى «الجلد القرطبي Cordovan» . وكان في
قرطبة وحدها ١٣٠٠٠ نساج ، وكان المشترون في كل مكان يقبلون

(*) نبات ينمو في ألمانيا وبريطانيا وتتخذ حبوبه طعاماً للخيل ، والماشية ، والدجاج ،
والكعك المصنوع من دقيقه طعام شهى على موائد الفطور الأمريكية . (ويسمى بالإنجليزية
buckwheat) (المترجم)

(**) نبات تتخذ براعيمه الصغيرة طعاماً شهياً ويسميه ابن سينا اسفرغس وهو بالإنجليزية
Asparagus) (المترجم)

على شراء السجاجيد ، والوسائد ، والسجف الحريرية ، والشيلان ، والأرائك الأندلسية . ويقول المقرئ^(٤٨) إن ابن فرناس القرطبي اخترع في القرن التاسع الميلادي النظارات ، والساعات الدقاقة المعقدة التركيب ، كما اخترع آلة طائرة . وكان أسطول تجارى يزيد على ألف سفينة يحمل غلات الأندلس ومصنوعاتها إلى إفريقية وآسية ، وكانت السفائن القادمة من مائة ثغر و ثغر تزدهم بها مرافئ برشلونة ، والمرية ، وقرطاجنة ، وبلنسية ، ومالقة ، وقادس ، وأشبيلية . وأنشأت الحكومة نظاماً للبريد ينقل رسائلها بانتظام . واحتفظت العملة الرسمية بأجزائها - الدينار الذهبى ، والدرهم الفضى ، والفلس النحاسى ، - بثباتها واستقرارها النسبى ، إذا قارناها بعملة العالم المسيحى اللاتينى فى أيامها ، ولكن هذه النقود الأندلسية أخذت هى الأخرى ينقص وزنها ، ونقاؤها ، وقوتها الشرائية .

وسار الاستغلال الاقتصادى فى هذد البلاد سيرته فى البلاد الأخرى ، فاستحوذ العرب أصحاب الضياع الواسعة ، والتجار الذين كانوا يفتشرون المنتج والمستهلك على السواء ، على خيرات الأرض . وكان معظم الأغنياء يعيشون فى الريف فى بيوت ذات حدائق ، ويتركون المدن الكبرى للبربر ، والذين أسلموا من المسيحيين ، والمستعربين (غير المسلمين من الأندلسيين الذين أخذوا عن العرب أساليب العيش ولغة الحديث) ، وإلى طائفة قليلة العدد من الحصيان ، والضباط والحراس الصقالبة ، والعبيد خدم البيوت . وأحسن الخلفاء فى قرطبة بعجزهم عن القضاء على الاستغلال الاقتصادى من غير أن يضعفوا روح المغامرة فوقفوا بين هذا وذاك بتخصيص ربع غلات أرضهم لمعونة الفقراء^(٤٩) .

وكان استمساك الطبقات المعلمة بدينها وتشدها فى عقائدها سبباً فى زيادة سلطان الفقهاء أى علماء الشريعة الإسلامية ؛ وكان العامة ينفرون من كل جديد (٢١١ - ج ٢ - مجلد ٤)

في العقائد أو الأخلاق نفوراً جعل الخارجين على الدين ، والمفكرين (*) يخفون رؤوسهم في معظم الأحياء ، ويتزؤون في البيوت أو يلجأون إلى الغموض في الأقوال . وكنت أفواه الفلاسفة ، أو اضطروا إلى الجهر بآراء تقبلها جمهرة الناس وتحترمها . وكان الموت جزاء من يرتد عن دين الإسلام . نعم إن خلفاء قرطبة أنفسهم كانوا رجالاً ذوي آراء حرة ، ولكنهم كانوا يظنون أن الخلفاء الفاطميين في مصر يتخذون العلماء المتقلبين عيوناً عليهم ، ولهذا كانوا ينضمون في بعض الأحيان إلى الفقهاء في التضييق على التفكير الحر المستقل . لكن الحكام الأندلسيين قد أطلقوا لغير المسلمين جميعهم على اختلاف أديانهم حرية العبادة . وإذا كان اليهود الذين اضطهدهم القوط الغربيون أشد الاضطهاد قد ساعدوا المسلمين في فتوحهم ، فقد ظلوا يعيشون من ذلك الوقت إلى القرن الثاني عشر مع المسلمين الفاتحين في أمن ووثام ، وأثروا ، وبرعوا في العلوم والمعارف ، وارتقوا في بعض الأحيان إلى مناصب عالية في الحكومة . أما المسيحيون فكانت تعترضهم في سبيل الرقي في مناصب الدولة عقبات أكثر مما يعترض اليهود ، ولكنهم رغم هذه العقبات ظفروا بنجاح عظيم . وكان المسيحيون الذكور ، كالذكور من سائر الأديان ، يرغبون على الختان بوصفه وسيلة من وسائل الوقاية الصحية القومية ، لكنهم فيما عدا هذا كانوا يحكمون بمقتضى شريعتهم القوطية الرومانية ينفذها فيهم قضاة يختارونهم هم أنفسهم (٥٠) . وكان الذكور الأحرار القادرون من المسيحيين يؤدون ضريبة الفرضة (***) نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ؛ وكان مقدارها في العادة ثمانية وأربعين درهماً (٢٤ ريالاً أمريكياً) للغنى ، وأربعة وعشرين للمتوسط الثراء ، واثني عشر درهماً لمن يعمل بيده (٥١) . وكان المسلمون

(*) لا ندري كيف يتفق هذا القول مع ظهور كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد في بلاد الأندلس نفسها . ولسنا نشك في أن المؤلف قد خانته التوفيق في هذا الحكم . (المترجم)

(**) في الأصل الإنجليزي ضريبة الأراضي الزراعية وهو بلا شك سهو من المؤلف . (المترجم)

والمسيحيون يتزاوجون فيما بينهم بكامل حريتهم ، ويشته كون من حين إلى حين في الاحتفال بأحد الأعياد المسيحية أو الإسلامية المقدسة ، ويستخدمون المبنى الواحد كنيسة ومسجداً (٥٢) ، وجرى بعض المسيحيين على عادة أهل البلاد فاصطفوا « الحریم » أو مارسوا اللواط (٥٣) ، وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين يفدون بكامل حريتهم وهم آمنون من جميع أنحاء أوروبا المسيحية إلى قرطبة ، أو طليطلة ، أو إشبيلية طلاباً للعلم ، أو زائرين ، أو مسافرين . وقد شكوا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اضطباع اليهود بالصبغة اليونانية فيقول :

« إن إخواني المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء المسلمين وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة الأنيقة . . . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ؛ فهم يقبلون في نهم على دراسة كتب العرب ، ويملأون بها مكباتهم ، وينفقون في سبيل جمعها أموالاً طائلة ، وهم أينما كانوا يتغنون بمدح علوم العرب (٥٤) » . وفي وسعنا أن نحكم على ما كان للدين الإسلامي من جاذبية للمسيحيين من رسالة كتبت في عام ١٣١١ م تقدر عدد سكان غرناطة المسلمين في ذلك الوقت بمائتي ألف ، كلهم ماعداً ٥٠٠ منهم من أبناء المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام (٥٥) . وكثيراً ما كان المسيحيون يفضلون حكم المسلمين على حكم المسيحيين (٥٦) .

لكن هذه الصورة الحميلة كان لها وجه آخر أخذ يزداد وقتاً ما على مر الأيام . ذلك أن الكنيسة المسيحية لم تكن حرة ، وإن كان المسيحيون أنفسهم أحراراً . فقد صودر معظم أملاكها العقارية بمقتضى مرسوم يشمل جميع من يقومون بعمل إيجابي في مقاومة الفاتحين ؛ كذلك دمرت معظم الكنائس وحرمت بناء كنائس جديدة . وورث الأمراء المسلمون من ملوك القوط حق تنصيب

الأساقفة وعزلهم ، وحق دعوة المجالس الكنيسة نفسها إلى الانعقاد . وكان
الأمراء يبيعون مناصب الأساقفة لمن يؤدون فيها أغلى الأثمان ، ولو كان من
يسند إليه المنصب من الفجرة أو المتشككين في الدين ، وكان القساوسة
المسيحيون يتعرضون أحيانا للشتائم من المسلمين في الشوارع ، وكان فقهاء
المسلمين يعلقون بكامل حريتهم على ما يبدو لهم أنه سخافات وأباطيل في الدين
المسيحي ، ولكن المسيحيين الذين يردون عليهم بمثل أقوالهم كانوا
يتعرضون للخطر .

وفي هذه العلاقات المتوترة قد تؤدي أية حادثة صغيرة إلى مأساة شديدة .
مثال ذلك أن فتاة حسناء من فتيات قرطبة ، معروفة لدينا باسم فلورا Flora
فحسب ، ولدت لأبوين من دينين مختلفين ، فلما توفي أبوها المسلم اعترفت أن
تعتنق الدين المسيحي ، وفرت من بيت أخيها إلى بيت أحد المسيحيين ، ولكن
أخاها قبض عليها وضربها ، وأصرت الفتاة على الارتداد عن دين أبيها ،
وسيقت إلى إحدى المحاكم الإسلامية . وأمر القاضي بضربها وإن كان في مقدوره
أن يحكم بإعدامها . ومع هذا فقد فرت مرة أخرى إلى بيت مسيحي حيث
التقت بقس شاب يدعى أولوجيوس Eulogius أحبها حباً روحياً عارماً .
وبينا كانت الفتاة مختبئة في أحد الأديرة ، إذ قتل قس آخر يدعى
برفكتوس Perfectos ، لأنه تكلم في حق النبي محمد أمام بعض
المسلمين ؛ وقد وعدوه بالأيشوا به ، ولكن أقواله بلغت من العنف
درجة روع لها مستمعوه فأبلغوا عنه ولاية الأمور . وكان في وسع بروفكتوس
أن ينجو من العقاب إذا أنكر ما قال ، ولكنه بدل أن يفعل هذا كرر
أمام القاضي قوله إن محمداً كان « خادماً للشيطان » ، فما كان من القاضي
إلا أن حكم عليه بالسجن بضعة أشهر لعل هذا يصلح حاله ؛ ولكنه
لم ينصلح ، وتمادى في أقواله فحكم عليه بالإعدام . وظل وهو يساق إلى المشنقة

يسب النبي ، ويقول : إنه « مدع ، زان ، ولدته جهنم » (*) ، وابتهج المسلمون بمقتله ، واحتفل المسيحيون بدفنه احتفالا مهيباً ، وعدوه من القديسين (٨٥٠) (**) (٥٨) .

وأشعل مقتله نيران الحقد في قلوب الطائفتين . فتألفت جماعة من المتعصبين المسيحيين بزعامة يولجوس وجعلت هدفها سب النبي علناً ، والترحيب بالقتل اعتقاداً منها بأن مصير من يقتل من أفرادها هو الجنة . وذهب راهب قرطبي يدعى إسحق إلى القاضي وعرض عليه رغبته في اعتناق الإسلام ، وسر القاضي من هذا وبدأ يشرح له مبادئ الدين الإسلامي ، ولكن الراهب قطع عليه شرحه وقال « إن نبيكم قد كذب عليكم وخذعكم ، ألا لعنة الله عليه لأنه قد جر معه هذا العدد العظيم من البائسين إلى الجحيم ! فزجره القاضي وسأله هل هو ثمل ؟ فرد عليه الراهب بقوله : « إني مالك لقواي فاحكم عليّ بالإعدام » فأمر القاضي بسجنه ولكنه استأذن عبد الرحمن الثاني بأن يخرج علي أن يعقله خبالاً ، غير أن موكب جنازة پرفكتوس وما أحاط به من روعة وفخامة كان قد أثار حفيظة الخليفة فأمر بإعدام الراهب . وبعد يومين من هذا الحادث جرؤ جندي من الفرنجة في حرس القصر على سب النبي علناً ، فكان جزاؤه الإعدام . وفي يوم الأحد التالي وقف ستة من الرهبان أمام القاضي وسبوا النبي ولم يطلبوا لأنفسهم الإعدام فحسب بل طلبوا فوق ذلك أن يعذبوا أشد التعذيب ، فحكم عليهم بالإعدام ، وحذا حذوهم قس ، وشماس ، وراهب . وابتهج لذلك أفراد الجماعة

(*) لقد أثبتنا هذه الألفاظ وما قبلها كما هي رغم ما فيها من تطاول على مقام اشرف الأنبياء لكي يقدر القارئ شناعة الجرم الذي ارتكبه قائلها . (المترجم)

(**) وليس أدل على روح التسامح التي كانت تسود ذلك العصر من سماح المسلمين لمواطنيهم المسيحيين بالاحتفال بدفن هذا القس الذي سب نبيهم بأقبح الألفاظ احتفالاً فخماً مهيباً كما يقول مؤلف الكتاب . (المترجم)

ولكن كثيرين من المسيحيين - من رجال الدين وغير رجال الدين - لم يرضوا عن هذا التسابق للموت ، وقالوا لتلك الفئة المتحمسة « إن السلطان يسمح لنا بأن نمارس شعائر ديننا ، ولا يضطهدنا ، فما الداعي إذن إلى هذا التعصب الشديد ؟ » (٥٩) ودعا عبد الرحمن إلى عقد مجلس من الأساقفة المسيحيين فأصدر قراراً بلوم طائفة المتحمسين المتعصبين ، وهددهم بأن يتخذ ضدهم إجراءات عنيفة إذا لم ينقطعوا عن إثارة الفتن ، فما كان من يولجوس إلا أن أخذ يندد بأعضاء المجلس ويصفهم بالخبين .

وزادت هذه الحركة من تهمس فلورا ، فغادرت الدير الذي كانت تقيم فيه وجاءت هي وفتاة أخرى تدعى مارية إلى القاضي وأخذتا تطعنان على النبي وتقولان : إن الإسلام من « اختراع الشيطان » فأمر القاضي بسجنهما . وحملهما بعض أصدقائهما على أن يرجعا عن أقوالهما ، ولكن يولجوس تغلب عليهما وأقنعهما بأن يرضيا بالقتل ، فقتلا . وشجع هذا يولجوس فأخذ يطالب بضحايا جدد ، فأقبل على المحكمة قساوسة ، ورهبان ، ونساء يسبون النبي ويطلبون أن يعذبوا (*) (٨٥٢) ، وأعدم يولجوس نفسه بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وخمدت الفتنة بعد سبع سنين من موته فلم نسمع بين عامي ٨٥٩ ، ٩٨٣ إلا عن حادثين من حوادث السب والقتل ، ولم نسمع عن حوادث أخرى من هذا النوع في أثناء الحكم الإسلامي في أسبانيا (٦٠) .

(*) ليس أدل على تسامح الحكام المسلمين من سلوكهم في أثناء هذه الحركة ، وعدم التجأهم إلى قمعها دفعة واحدة ، واكتفائهم بالحكم على من يتقدمون إلى القضاة ليطعنوا في الدين ويسبوا الرسول . ترى ماذا يكون موقف أية حكومة من الحكومات الغربية في هذه الأيام لو تألفت مثل هذه الجماعة لهذا الغرض ؟ إن أقل ما كانت تفعله بلا ريب هو أن تقبض على جميع أفراد الجمعية وتزجهم في السجن وتستاصل الفتنة من جذورها . وخلق بنا أن نشير إلى ما اتبعه الأسبانيون أنفسهم مع المسلمين بعد أن طرد العرب من أسبانيا وإلى ما لقيه المسلمون من قسوة وتعذيب همجي وعمل متواصل نحو جميع الآثار الإسلامية في العلوم والفنون والآداب .

(المترجم)

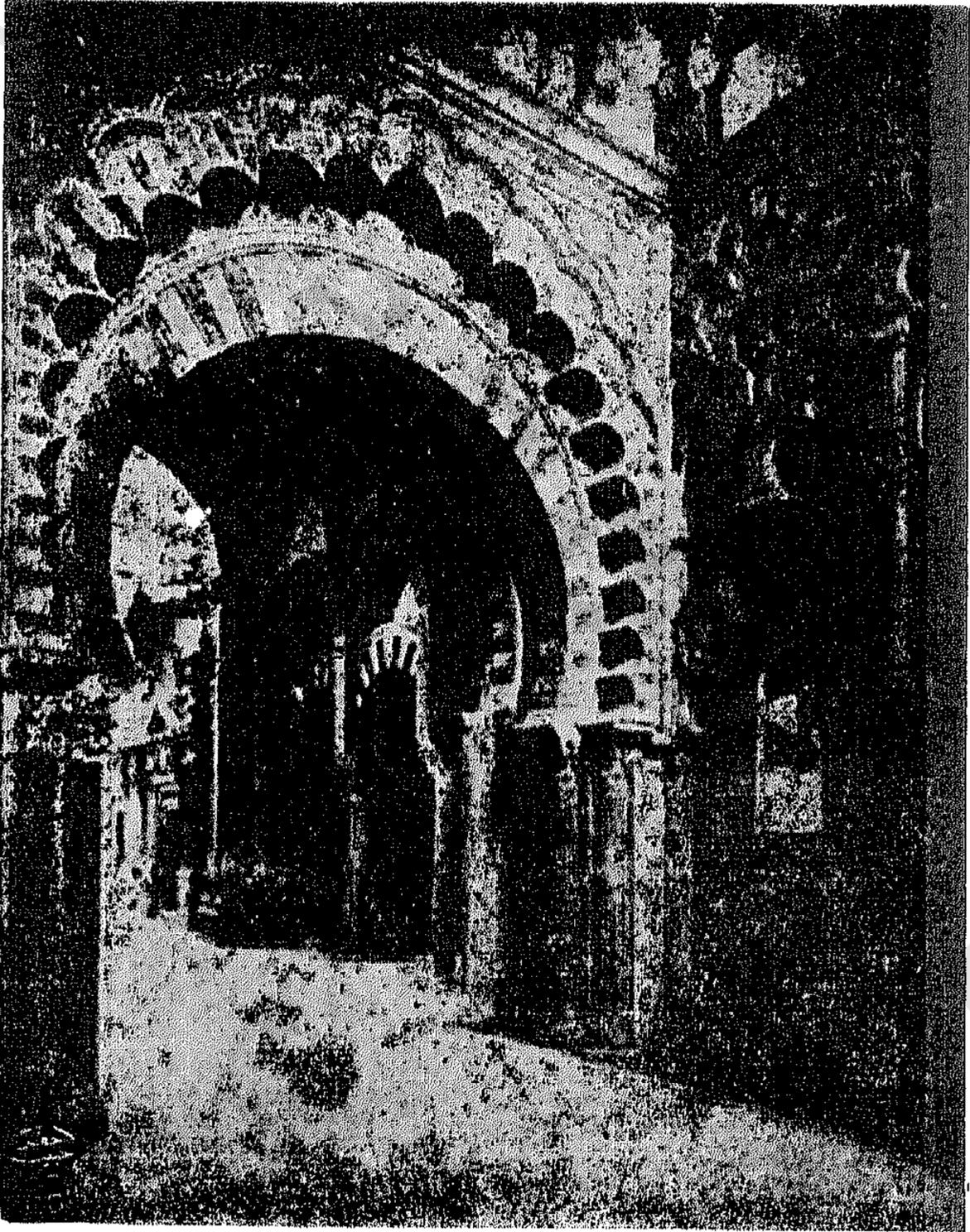
أما بين المسلمين أنفسهم فقد ضعفت الحجاسة الدينية بإزدياد التراء ،
وظهرت في القرن الحادى عشر الميلادى موجة من التشكك رغم ما فى
الشريعة الإسلامية من شدة على المتشككين ؛ ولم يقتصر الأمر على دخول
مبادئ المعتزلة التى لا تناقض عقائد أهل السنة مناقضة شديدة ؛ بل قامت
طائفة أخرى تنادى بأن الأديان كلها باطلة ، وتسخر بالأحكام الدينية ،
والصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة . ونشأت طائفة أخرى غير هذه
وتلك سميت نفسها أتباع الدين العالمى ، وأخذت تندد بكل العقائد ، وتنادى
بدين يقوم على المبادئ الأخلاقية دون غيرها . وكان من بين هؤلاء جماعة
من اللأدرين يقولون إن العقائد الدينية قد تكون صحيحة وقد لا تكون ،
فلسنا نؤكددها أو ننكرها ، وكل ما فى الأمر أننا لا نعرف حقيقتها ، ولكننا
لا تسمح لنا ضمائرنا بأن نقبل عقائد لا نستطيع إثبات صحتها (٦١) . وأخذ
رجال الدين يقاومون هذه العقائد مقاومة قوية ؛ ولما أن حلت المصائب
بالمسلمين فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر أخذوا يقولون إن سببها هو هذا
الضلال ، ولما انتعش المسلمون بعض الوقت فى الأندلس مرة أخرى ،
كان انتعاشهم فى عهد حكاهم أقاموا سلطانهم كما كان من قبل على قواعد
الدين ، وقصروا الجدل القائم بين الدين والفلسفة على ما كان منه فى
بلاطهم وما يبتغون به تسليتهم .

ولكن القباب المتلاثلة والمآذن المذهبة كانت على الرغم من الفلاسفة زينة
المدائن الكبيرة والصغيرة التى جعلت بلاد الأندلس فى القرن العاشر الميلادى
أعظم البلاد المتحضرة فى أوروبا ، بل إنها كانت فى أغلب الظن أعظم البلاد
المتحضرة فى العالم كله فى ذلك الوقت . لقد كانت قرطبة فى أيام المنصور من
أعظم مدن العالم حضارة ، ولا يفضاها فى هذا إلا بغداد والقسطنطينية . وكان فيها كما
يقول المقرئ ٧٧٠ ر ٢٠٠ منزلا ، و ٣٠٠ ر ٦٠ قصر ، ٦٠٠ مسجد ، و ٧٠٠ حمام (٦٢)
عام ، وإن كانت هذه الإحصاءات لا تجلو من قليل من المغالاة الشرقية . وكان زائرو

المدينة يدهشون من ثراء الطبقات العليا ، ومما كان يبدو لهم أنه رخاء عام ؛ فقد كان في وسع كل أسرة أن يكون لها حمار ؛ ولم يكن يعجز عن الركوب إلا المتسولون . وكانت الشوارع مرصوفة ، لكل منها طواران على الجانبين ، تضاء أثناء الليل ، ويستطيع الإنسان أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مصابيح الشوارع وبين صفيين لا ينقطعان من المباني (٦٣) . وقد أقام المهندسون العرب على نهر الوادي الكبير الهادئ الجريان جسراً من الحجارة ذا سبعة عشر عقداً عرض كل واحد منها خمسون شبراً . وكان من أولى منشآت عبد الرحمن الأول قناة تحمل إلى مدينة قرطبة كفايتها من ماء الشرب تنقله إلى المنازل والحدائق ، والفساقي والحمامات ، واشتهرت المدينة بكثرة ما كان فيها من الحدائق والمنتزهات .

وكان عبد الرحمن الأول شديد الحنين إلى مسارح صباه ، فأنشأ في قرطبة بستاناً عظيماً شبيهاً بالقصر الريني الذي قضى فيه أيام صباه بالقرب من دمشق ، وشاد في هذا البستان قصره المعروف « بقصر الرصافة » ، وأضاف إليه من جاء بعده من الخلفاء أجنحة أخرى خلج عليها خيال المسلمين أسماء زاهية كقصر الروضة . . . وقصر المعشوق . . . وقصر السرور . . . وقصر التاج (*) . وكان لقرطبة كما كان لإشبيلية قصرها الذي يجمع بين بيت السكن العظيم والحصن المنيع . ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع في جمالها وترفيها قصور نيرون في رومة : يصفون أبوابها الفخمة ، وعمدها الرخامية ، وأرضها المرصوفة بالفسيفساء ، وسقفها المذهبة ، وما فيها من النقوش الجميلة التي لا يقدر عليها إلا الفن الإسلامي وحده . وكانت قصور الأسرة المالكة ، وكبار الملاك والتجار تمتد على شاطئ النهر العظيم ؛ وقد ورث عبد الرحمن الثالث من إحدى جواريه ثروة طائلة ، وأراد أن ينفقها في اقتداء من عساهم يكونون في الأسر من

(٥) والكامل ، والمجدد ، والحائر ، والزاهر ، والمبارك ، والرستق ، والبديع .
(المترجم)



(شكل ٦) داخل مسجد قرطبة

obeyikenda.com



(شكل ٧) بهو السباع في قصر الحمراء نغرباطه

obeyikendal.com

جنوده ، ولما قال الباحثون الفخورون إنهم لم يجدوا أحداً من جنوده في الأسر عرضت عليه الزهراء زوجته المحبوبة أن ينفق المال في بناء ضاحية وقصر يخلد بهما اسمها . وظل عشرة آلاف من العمال وألف وخمسمائة من الدواب يكدحون خمسة وعشرين عاما (٩٣٦ - ٩٦١) لتحقيق حلمها ، فكان قصر الزهراء الملكي الذي يقع على بعد ثلاثة أميال من قرطبة وإلى جنوبها الغربي . وقد زين أفخم زينة وأثث بأفخم أثاث . وكان القصر يقوم على ألف ومائتي عمود من الرخام ، وكان جناح الحریم به يتسع لستة آلاف امرأة ، وكان يحتوى على بهو لمجلس الخليفة سقفه وجدرانها من الرخام والذهب ، له ثمانية أبواب مطعمة بالأبنوس والعاج والحجارة الكريمة ، وكان به فسقية مملوءة بالزئبق تنعكس على سطحها أشعة الشمس المتماوجة . واجتمعت حول الزهراء قصور طبقة من الأشراف طبقت العالم شهرتها بالظرف والرقّة ، وحسن الذوق ، وتعدد متعتها العقلية . وأقام المنصور في الطرف المقابل لهذا القصر من المدينة قصراً آخر يضارعه (٩٧٨) سمي بالزاهرة أحاطت به هو الآخر على مر الزمن ضاحية من قصور العطاء ، وبيوت الخدم ، والمغنين والعازفين ، والشعراء ، والحليلات . وقد حرق القصران في أثناء الثورة التي تآجج لها في عام ١٠١٠ .

وكان الناس في العادة يتغاضون عن ترف الأمراء إذا ما أقام هؤلاء بيوتاً لله تفوق قصورهم في الفخامة والسعة . وكان الرومان قد شادوا في قرطبة هيكل إيانوس Janus ، أنشأ المسيحيون بدلا منه كنيسة كبرى ؛ فلما تولى الخلافة عبد الرحمن الأول ابتاع من المسيحيين أرض الكنيسة ، وهدمها وشاد في مكانها المسجد الأزرق ، ولما عادت أسبانيا إلى حكم المسيحيين حوّلوا المسجد إلى كنيسة في عام ١٢٣٨ ؛ وهكذا تتغير مقاييس التقى ، والصدق ، والجمال تبعاً لتقلبات الحظ في الحروب . وجعل عبد الرحمن هذا المشروع سلوته في سنيه الكدرة ، فغادر بيته الريفي إلى قصره في المدينة ليشرّف على العمل بنفسه ، وكان يأمل أن يطول عمره

حتى يؤم المصلين في المسجد الفخم الجديد شكراً لله على توفيقه . لكنه توفي في عام ٧٨٨ ، بعد عامين من وضع الأساس ، وواصل ابنه هشام عمل أبيه ، وظل الخلفاء مدى قرنين كاملين يضيف كل منهم جزءاً جديداً للمسجد حتى كانت سعته في أيام المنصور ٧٤٢ قدما في ٤٧٢ . وكان يحيط به سور منبع من الآجر والحجر ذو أبراج على أبعاد غير منتظمة ، وكانت له مآذنة ضخمة تفوق في حجمها وجمالها كل مآذن تلك الأيام ، حتى عدت هي الأخرى من « عجائب الدنيا » التي لا يحصى لها عدد (٦٤) . وكان للمسجد تسعة عشر باباً تحيط بها عقود على شكل حذاء الفرس ، نقشت عليها في الحجر براءة فائقة زخارف مكونة من أزهار وأشكال هندسية . وكانت هذه الأبواب تؤدي إلى مكان الوضوء الفسيح الذي يسمى الآن هو البرتقال (Patio de los Naranjos) . وفي هذا البهو الرباعي الشكل ، المرصوفة أرضه بالقرميد الملون كانت أربع فساق نحتت كل منها من كتلة واحدة من المرمر الأصم بلغ من ضخامتها أن تطلب نقلها من المقلع إلى مكانها في المسجد سبعين ثوراً . وكان المسجد نفسه يحتوي على أجرة من ١٢٩٠ عموداً تقسم داخله إلى أحد عشر إيواناً وواحد وعشرين دهليزاً . وكانت تخرج من تيجان الأعمدة عقود مختلفة الأنواع - بعضها نصف دائري ، وبعضها مستدق ، وبعضها على شكل حذاء الفرس ، ولعظمها أوتاد من الحجر حمراء أو بيضاء بالتناوب . وكانت العمود من حجر اليشب ، والحجر السماقي ، والمرمر ، والرخام ، انتزعت من خرائب الرومان والقوط الغربيين في أسبانيا ، وكانت لكثرة عددها تحير الناظر وتوحى إليه بأن المسجد لا ينتهي عند حد . وقد نقشت على السقف الخشبي آيات من القرآن (الكريم) وزخارف أخرى داخل إطارات ، وعلق فيه مائتا ثريا تحمل سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر تستمدده من خزانات مصنوعة من نواقيس مسيحية مقلوبة معلقة هي الأخرى من السقف ، أما الأوض والجدران فقد زينت بالفسيفساء ، بعضها من الزجاج المطلي بالمينا ،

الملون عند صنعه بكثير من الألوان الزاهية ، وكثيراً ما كانت تحتوى على قطع من الفضة والذهب . ولا تزال هذه الزينات بعد ألف عام من وضعها تتلألأ كالجواهر في جدران الكنيسة . وقد جعل قسم من المسجد مزاراً مقدساً ، ورصفت أرضه بالفضة وقطع القاشاني المطلية بالميناء ، تحرسه أبواب مزدانة ومطعمة بالفسيفساء ؛ وقامت عليه ثلاث قباب ، وأحيط بسائر من الخشب محلاة بأبداع النقوش . وفي داخل هذا الموضع المنفصل أقيم المحراب والمنبر اللذان أفرغ عليهما الفنان كل ما وهب من خدق وإبداع . وكان المحراب نفسه تجويفاً سباعى الأضلاع محاطاً بالذهب ومزداناً بالفسيفساء المطلية بالميناء ، ومزخرفاً بقطع صغيرة من الرخام وبنقوش من الذهب على أرضية قرمزية وزرقاء ، يعلوه رباط من الأعمدة الرفيعة الرشيقة ، والتعود المزدانة بأزها الكرة(*) لا يفوقها في الجمال شيء مما أبداع الفن القوطى . وكان المنبر يعد أجمل منابر العالم طرّاً ؛ وكان يؤلف من ٣٧,٠٠٠ قطعة صغيرة من العاج والأخشاب الثمينة - كالأبنوس ، والأترج ، وعود الند ، والصندل الأحمر والأصفر ، مثبتة كلها بمسامير من الذهب والفضة ، ومطعمة بالجواهر . وكان على هذا المنبر صندوق مطعم بالجواهر عليه غطاء من الحرير القرمزى المطرز بخيوط من الذهب يحمل مصحفاً بخط الخليفة عثمان بن عفان ، ومخضباً يدمه الذى جرى عليه عند مقتله . ويبدو لنا نحن الذين نفضل أن نزين دور تمثيلنا بالمعادن المذهبة وبالنحاس يدل أن نحلى كنائسنا بالجواهر والذهب ، يبدو لنا أن فى زخرفة المسجد الأزرق إسرافاً كبيراً ، وأن جدرانها قد غطيت بطبقة من دماء الأجيال المستغلة ؛ وأن الأعمدة فيه كثيرة مربكة ، وأن العقد الذى على صورة حذاء الفرس ضعيف من الناحية المعمارية تنفر منه حاسة الجمال كما تنفر من منظر الرجل البدين ذى الساقين الفحجاوين(**) . ذلك حكمنا أما غيرنا فكان

(*) حلية معمارية . (المترجم)

(**) الساق الفحجاء هى التى انحنت من وسطها فتباعد وسطها عن وسط صاحبها

(المترجم)

حكاه يناقض هذا الحكم ؛ فالمقرى (١٥٩١ - ١٦٣٢) يرى أن هذا المسجد لا يدانيه مسجد آخر في سعته ، أو جمال تخطيطه ، أو نظام زخرفه الذى يشهد للقائمين به بحسن الذوق وبما يدل عليه من قوة وعظمة (٦٥) ، ولا يزال البناء حتى في شكله المسيحي المصغر يعد « بالإجماع أجمل المساجد الإسلامية في العالم كله » (٦٦) .

وكان من الأقوال المتداولة في بلاد الأندلس الإسلامية أنه « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت إلى إشبيلية » (٦٧) (*) . ذلك أن قرطبة كانت في القرن العاشر مركز الحياة الذهنية الأسبانية وذروتها ، وإن اشتركت معها طليطلة ، وغرناطة ، وإشبيلية فيما وصل إليه ذلك العصر من رقى عقلى عظيم . ويصور المؤرخون المسلمون المدن الأندلسية تموج بالشعراء وجهاينة العلماء في العلوم الطبيعية ، والأدبية ، وكبار المشترعين ، والأطباء ؛ ويملاً المقرى بأسمائهم ستين صحيفة (٦٨) . وكانت المدارس الابتدائية كثيرة العدد ، ولكنها كانت تتقاضى أجوراً نظير التعليم ، ثم أضاف الحكم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجان . وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء ، ونبغ عدد من النساء المسلمات في الأدب والفن (٦٩) ، وكان التعليم العالى يقوم به أساتذة مستقلون يلقون محاضراتهم في المساجد ، وكانت المناهج التى يدرسونها هى التى كونت جامعة قرطبة ذات النظام المفكك ، والتى لم يكن يفوقها في القرنين العاشر والحادى عشر إلا جامعتا القاهرة وبغداد الشبهتان بها . وأنشئت الكليات أيضاً في غرناطة ، وطليطلة ، وإشبيلية ، ومرسية ، والمرية ، وبلنسية ، وقادس (٧٠)

(*) قيل هذا في مناظرة جرت بين منصور بن عبد المؤمن وبين الفقيه العالم ابن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر وقائله هو ابن رشد نفسه وقد قدم المؤلف عجز العبارة على صدرها .
(المترجم)

وأدخلت صناعة الورق من بغداد فازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتى كان في الأندلس الإسلامية سبعون مكتبة عامة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلدة بالجلد القرطبي ، ومحبو الكتب يجمعون النادر المزخرف منها . من ذلك أن الحضرمي أحد العلماء رأى في مزاد بقرطبة رجلاً آخر لا يفتأ ينافسه فيزيد من ثمن كتاب يرغب فيه حتى فاق الثمن كثيراً قيمة الكتاب ، ولما سئل المزاد الذي اقتناه في ذلك قال إن في مكتبته الخاصة موضعاً خالياً يسع هذا الكتاب بالدقة . ويضيف فاغتاظ العالم من هذا القول أشد الاغتيال ولم يسعه إلا أن يقول : « نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا أسنان له » (٧١) (*) .

وكانت للعلماء في الأندلس منزلة رفيعة وشهرة واسعة ، يعظمهم الناس ويهابونهم ، ويستشيرونهم في شئونهم ، ويعتقدون أن لا فرق مطلقاً بين العلم والحكمة . وكان علماء الدين والنحاة يعدون بالمئات ، أما الخطباء ، وفقهاء اللغة ، وأصحاب المعاجم ، والموسوعات ، ودواوين الشعر ، والمؤرخون ، وكتاب السير فلم يكن يحصى لهم عدد . وكان أبو محمد علي بن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) من جهابذة علماء الدين والمؤرخين ، كما كان وزيراً لآخر الخلفاء الأمويين . ويعد كتابه المعروف بـ « كتاب الملل والنحل » (***) الذي يتكلم فيه على اليهودية ،

(*) ثم أضاف : وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه . (المترجم)

(**) اسم الكتاب كاملاً هو « السِفْصَلُ فِي الْمَلَلِ وَالْأَهْوَاءِ وَالنَّحْلِ » للإمام أبي محمد علي ابن أحمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . وأما كتاب « الملل والنحل » فلإمام أبي الفتح محمد ابن عبد الكريم الشهرستاني المتوفى سنة ٥٤٨ هـ . والفصل الواردة في بدء اسم الكتاب الأول جمع فصيلة بالكسر كقصعة وقصع وهي النخلة المنقولة من محلها إلى آخر لتشر ، هذا ولم نثر على الفقرة الواردة هنا بنصها في كتاب ابن حزم ويبدو لنا أن دوزي الذي نقل عنه المؤلف قد أخذ معناها من مواضع متفرقة من الكتاب ولهذا لم نر بدا من ترجمتها واستعملنا ما عثرنا عليه من ألفاظ ابن حزم في الفصل الذي تكلم فيه على النصرانية . (المترجم)

والزرادشتية ، والمسيحية ، والفرق الإسلامية المختلفة من أقدم ما كتبه الأقدمون في علم الأديان المقارن . وإذا شئنا أن نعرف رأى العالم المسلم فيما كانت عليه المسيحية في العصور الوسطى فحسبنا أن نقرأ الفقرة الآتية من هذا الكتاب :

يجب ألا تثير أو هام بنى الإنسان عجبنا ، فإن أكثر الأمم عدداً ، وأعظمها حضارة تستحوذ على عقول أبنائها هذه الأوهام . . . فالمسيحيون من الكثرة بحيث لا يحصى عددهم إلا الله وحده . وفي وسعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة نابيين ، ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، وإن أحد هؤلاء الثلاثة الأب والثانى الابن ، وإن الإنسان إله وليس إلهما ، وإن المسيح قديم موجود من الأزل ، ومع ذلك فهو مخلوق ، ومنهم فرقة تسمى اليعاقبة ، تبلغ عدتها مئات الآلاف تعتقد أن الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ، والفلك بلا مدبر (٧٢) .

وكان ابن حزم يؤمن بأن كل كلمة وردت في القرآن حق بنصها ومعناها (٧٣) . وكان من أشد العوائق في سبيل تقدم العلم والفلسفة في بلاد الأندلس الخوف من أن يؤثر في إيمان العامة ، لكن الأندلس تستطيع أن تفخر بكثير من الفلاسفة والعلماء . فمن هؤلاء مسلمة بن أحمد (المتوفى في عام ١٠٠٧) والذي عدل أزياج الخوارزمي الفلكية لتلائم أسبانيا . ومن الكتب التي تعزى إليه ، وإن لم يثبت أنه له بصورة قاطعة ، كتاب يصف إحدى التجارب الكثيرة التي حولت الكيمياء الكاذبة إلى كيمياء صحيحة - وهي التجربة التي استخرجت أكسيد الزئبق من الزئبق . وأصبح اسم إبراهيم الزرقالي (١٠٢٩ - ١٠٨٧) أحد علماء طليطلة من الأسماء العالمية ، لأنه حسن الآلات الفلكية ، وينقل كوبرنيك فقرات من رسالته عن الاسطرلاب ، وكانت أزياجه الفلكية خير الأزياج كلها في زمانه ، وقد استطاع بها أن يثبت لأول مرة في التاريخ حركة الأوج الشمسي بالنسبة للنجوم . وكانت « أزياج طليطلة » المحددة لحركات الكواكب

تستخدم في كافة أنحاء أوروبا ؛ وكان لأبي القاسم الزهراوي (٩٣٦ - ١٠١٣)
طبيب عبد الرحمن الثالث منزلة رفيعة في العالم المسيحي ، ويعرف فيه باسم
أبو الكاسس Abulcasis ؛ وكان هو حامل لواء الجراحين المسلمين ، وتحتوى
موسوعته الطبية المسماة « التصريف » ثلاثة كتب في الجراحة أصبحت بعد أن
ترجمت إلى اللغة اللاتينية المرجع الأعلى في الجراحة قروناً كثيرة . وكانت قرطبة
في ذلك الوقت المدينة التي يلجأ إليها الأوربيون لتجربى لهم الجراحات . وكانت
تحتوى ، كما تحتوى كل مدينة متمدينة ، على بعض المتطبين الدجالين ،
والأطباء الذين ابتلوا بجنون الثروة ؛ ومن هؤلاء رجل يسمى الحراني أعلن
عن دواء يشفى الاضطرابات المعوية ، وكان يبيع الزجاجاة منه للسذج من
ذوى المال بنخمسين ديناراً (٢٣٧٥ ريال أمريكى) .

ويقول المقرئ : « وسنمك عن ذكر الشعراء الذين ظهوروا في أيام
هشام الثانى والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر » (٧٥) . وكان
من بينهم الأميرة الولادة (المتوفاة في عام ١٠٨٧) ؛ والتي كان بيتها في
قرطبة ندوة حقة شبيهة باندوات عهد الاستنارة في فرنسا : فكان يلتف حولها
الظرفاء ، والعلماء ، والشعراء ؛ وقد أحببت عدداً كبيراً منهم ، وكتبت
عن عشاقها بحرية لو سمعت بها السيدة ريكاميه Mme Récamier لارتاعت
لها . ولقد بزتها صديقتها مهجة القرطبية في جمال الجسم وخلاعة الشعر (*) .
وكاد كل إنسان في الأندلس وقتئذ أن يكون شاعراً ، يتطرح الشعر المرتجل
مع غيره لأى سبب . وكان الخليفة نفسه يشترك في هذه المطارحات الشعرية ،
وقلما كان يوجد في البلاد أمير مسلم ليس في بلاطه شاعر يكرم ويخصص
له راتب . وقد أدت هذه الرعاية الملكية إلى الشركا أدت إلى
الخير . ذلك أن ما وصلنا من شعر ذلك العصر كثيراً ما يبدو فيه

(*) يصفها المقرئ بقوله إنها من أجل نساء زمانها ولازمت ناديا وكانت من
أخف النساء روحاً . (المترجم)

التكلف والصناعة اللفظية ، والمحسنات ، وهو مثقل بالتشبيهات والاستعارات مفعم بالعبارات الدالة على الكبرياء والغرور . أما موضوعه فهو الحب الشهواني والعدوى ؛ وقد استبق الشعراء في أسبانيا وفي الشرق الإسلامي أساليب شعراء الغزل في عهد الفروسية Troubadors ، وطرقهم وفلسفتهم (٧٦) .

وسنختار من هذا العدد الجم نجما واحداً لامعاً هو سعيد بن جودي ابن صاحب الشرطة بقرطبة (*) . كان سعيد جندياً مقداماً كثير العشق ، يتصف بجميع الصفات التي تجعله في نظر المسلمين سميذعاً أي سيدياً كاملاً بحق : فقد كان سخياً ، شجاعاً ، فارساً بارعاً ، بهي الطلعة ، فصيح اللسان ، شاعراً ممتازاً ، قوى الجسم ، يجيد فنون المصارعة والمثاقفة بالسيف ، والرمح ، والرماية بالقوس (٧٧) . ولم يكن يدري في أي وقت من الأوقات أيهما أحب إليه - الحب أو الحرب . وكان يتأثر بلمس المرأة مهما ضعف ، ولذلك افتتن بكثيرات من النساء كان حب كل واحدة منهن يبشر بحب دائم لا ينقطع . وكان حبه كحب شعراء عهد الفروسية الشعراء الجوالين الغزاليين أشد ما يكون حين تندر رؤية الحبيب . وكانت أعظم قصائده الغزلية قصيدة وجهها إلى جيجان التي لم ير منها إلا يدها الصغيرة الناصعة البياض . وكان أبيقوريا صريحاً يشعر بأن على رجال الأخلاق يقع عبء البرهنة على أن السعادة ليست هي اللذة . ومن أقواله في هذا المعنى :

(*) اسمه الكامل سعيد بن سليمان بن جودي ، وترجمته في كتاب الحلة السيرة لابن الأبار طبعة دوزي ص ٨٣ وما بعدها .

ومن قوله في جيجان :

تسمى أبي أن يكون الروح في بدني فاعتاض قلبي منه لوعة الحزن
أعطيت جيجان روعي عن تذكرها هذا ولم أرها يوماً ولم ترفني
كأنني واسمها والدمع منسكب من مقلتي راهب صلي إلى وثن

ويقال إنه نظر إلى جارئة فاعتراها الحجل وأطرقت بعينها فقال :

أماثلة الألفاظ عني إلى الأرض أهذا الذي تبدين ويحك عن بغض
فإن كان بغضاً لست والله أهله ووجهي بذلك اللحظ أولى من الأرض

(المترجم)

لا شيء أملح ومن مناقلة كأساً على طبق
ومن مواصلة من بعد معتبة ومن مراسلة الأحباب بالحدق
جريت جرى جموح في الصباطلقا وما خرجت لصرف الدهر عن طلق
ولا انثيت لذاعي الموت يوم دعا ولا انثيت وحبل الحب في عنق (٧٨)

وكان زملاؤه في الجندية يغضبون منه أحياناً لأنه يغوى أزواجهم ،
وقد قبض عليه في يوم ما أحد الضباط في بيته وقتله (٨٩٧) .

وقد لقي شاعر آخر أعظم منه وأنبى خاتمة خيراً من هذه وأعظم منها
بطولة ، ذلك هو المعتمد أمير إشبيلية . وكان كغيره من الملوك الصغار في
بلاد الأندلس بعد تفرقها قد ظل عدة سنين يؤدي الجزية إلى الفنسو السادس
(الأذفنش) ملك قشتالة يشتري بها عدم اعتداء المسيحية على الإسلام .
ولكن الرشا ترك على الدوام بقية منها يؤديها الراشي متى طلب إليه الأداء .
واستخدم ألفنسو المال الذي يأتيه من ضحيته في الانقضاض على طليطلة في
عام ١٠٨٥ ؛ وأيقن المعتمد أن إشبيلية ستكون الفريسة الثانية . وكانت
دويلات الأندلس وقتئذ قد أنهكتها حروب الطبقات وحروبها فيما بينها إلى
حد عجزت معه عن مقاومة عدوها المشترك مقاومة مجدية ؛ ولكن أسرة
إسلامية جديدة قامت وقتئذ على الجانب الآخر من البحر المتوسط هي أسرة
المرابطين وقد (اشتق اسمها من اسم أحد الأولياء الصالحين في الشمال الغربي
من إفريقية) . وكان الأساس الذي قامت عليه دولة المرابطين هو الاستمسك
الشديد بالدين ، ولم يكذب فيها رجل غير جندي من جنود الله ؛ ولم تجد
جيوشها صعوبة في الاستيلاء على مراكش بأجمعها . وتلقى في ذلك الوقت
مليكتها يوسف بن تاشفين - وهو رجل يتصف بالشجاعة والدهاء - دعوة
من أمراء الأندلس يستنجدون به من وحش قشتالة المسيحي الضاري ؛ فعبر
يوسف بجيشه مضيق جبل طارق ، وتلقى المدد من مالقة ، وغرناطة ، وإشبيلية ،

والتقى بجيش ألفنسو عند الزلاقة القريبة من بطليوس (١٠٨٦) . (بدجوز Badajoz) : وبعث ألفنسو برسالة رقيقة إلى يوسف يقول فيها : « إن غداً (الجمعة) يوم عيد عندكم ، ويوم الأحد عندنا ، ولهذا فإنى أقترح أن تدور المعركة في يوم السبت » . ووافق يوسف على هذا الاقتراح ولكن ألفنسو هجم على المسلمين في يوم الجمعة : وأظهر يوسف والمعتمد في الحرب كثيراً من ضروب البسالة ، واحتفل المسلمون بعيدهم بقتل عدد كبير من المسيحيين ، ولم ينج ألفنسو وخمسمائة من رجاله من الموت إلا بشق الأنفس . ودهشت أسبانيا حين عاد يوسف إلى إفريقية دون أن يغنم شيئاً .

ولكنه عاد بعد أربع سنين . وكان سبب رجوعه أن المعتمد ألح عليه بأن يقضى على قوة ألفنسو الذى كان يحشد الجيوش ليهاجم المسلمين من جديد . والتقى يوسف بالمسيحيين في مواقع غير حاسمة ، وبسط سلطانه على بلاد الأندلس الإسلامية . وزحج به الفقاء لأن من طبعهم على الدوام أن يفضلوا السيد الجدد على القديم ، وعارضته الطبقات المتعلمة لأنه في نظرهم يمثل الرجعية الدينية ، وابتهج رجال الدين بمقدمة . واستولى يوسف على غرناطة من غير مقاومة ، واكتسب محبة أهلها بإلغاء جميع الضرائب التى لا ينص عليها القرآن (١٠٩٠) . وعقد المعتمد وغيره من الأمراء فيما بينهم حلفاً لمقاومته ، كما عقدوا حلفاً مقدساً ! مع ألفنسو . وحاصر يوسف قرطبة ، وأسلمها إليه أهلها ؛ ثم حاصر إشبيلية ودافع عنها المعتمد دفاع الأبطال ، ورأى بعينه ولده يقتل في الدفاع عنها ، فحزن لموته حزناً هدركنه واستسلم للمحاصرين (*) ، ولم يحل عام ١٠٩١ حتى سقطت جميع الأندلس ما عدا سرقطة في يدى يوسف بن تاشفين ، وأصبحت أسبانيا الإسلامية ولاية تابعة لإفريقية .

(*) المعروف أنه كان للمعتمد ولدان هما المعتد بالله والراضى بالله وأنهما قتلا غيلة وله في رثائهما شعر كثير . انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين . (المترجم)

وسيق المعتمد أسير حرب إلى طنجة ، وتلقى وهو فيها رسالة من أحد شعرائها وهو الحصرى حوت أبياتا من الشعر يثنى فيها عليه ويسأله العطاء ، ولم يكن الأمير المغلوب على أمره يملك من متاع الدنيا في ذلك الوقت أكثر من خمسة وثلاثين ديناراً بعث بها إلى الحصرى واعتذر له عن قتلها(*) . ثم نقل المعتمد إلى أنعمات القرية من مدينة مراکش وعاش فيها بعض الوقت مكبلاً بالأغلال ، فقيراً معدماً ، ولم ينقطع عن قول الشعر حتى مماته (١٠٩٥) . ومن قصائده قصيدة خليقة بأن تنقش على قبره :

أرى الدنيا الدنية لا تواتى فأجمل في التصرف والطلاب
ولا يغرك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهب
فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء من تراب(*)

(*) الحصرى هو صاحب « زهر الآداب » وهو الذى استجدى ابن عباد فى منقاه ، وكان فقيراً ، فأخذت ابن عباد أريحيته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطعة يعتذر فيها عن قلة ما منحه واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : « إنه جرى مع المعتمد على سوء عادته من قبج الكدية وإفراط الإلحاف » وقد قال المعتمد نفسه فى هذا المعنى .

سألوا اليسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحسق منهم فاعجب
لولا الحياء وغزة الحمية طى الحشا لحكامهم فى المطلب

(من الجزء الثالث من ظهر الإسلام للمرحوم الدكتور أحمد أمين .) (المترجم)

(*) هذه هى أقرب أبيات وجدناها فى أشعار المعتمد إلى الأصل الإنجليزى وقد يكون فى الترجمة الإنجليزىة بعض التصرف الذى تحتته ترجمة الشعر العربى إلى شعر إنجليزى .
(المترجم)